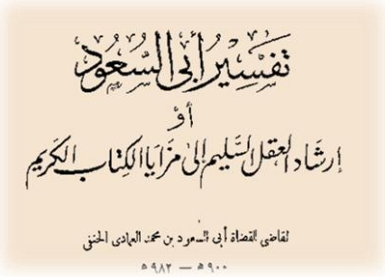

تفسير (٢)

أعدّها | أبو عبد المحسن - عفا الله عنه.

١٤٣٦هـ

مقدمات تتعلق بالقرآن الكريم وتفسيره

لكل علم من العلوم عشرة مبادئ جمعها بعضهم في قوله :

إِنَّ مَبادِئ كُلِّ فَنٍّ عَشَرَه *** الحَدُّ وَالموضُوعُ ثُمَّ الثَّمَرَه
وَنِسْبَةٌ وَفَضْلُهُ وَالوَاضِعْ *** وَالاِسْمُ الاِسْتِمْدَادُ حُكْمُ الشَّارِعْ
مَسَائِلٌ والبَعْضُ بِالبَعْضِ اكْتَفي *** وَمَنْ دَرَى الجَمِيعَ حَازَ الشَّرَفَا

مبادئ علم التفسير العشرة :

أولاً: تعريفه :

التفسير لغة : الكشف والبيان، فالتفسير مصدر من فسر تفسيرا إذا بيّن المراد من اللفظ أو التركيب القرآني، ومعناه انتهاء الغاية في إتقانه وبلوغ النهاية في تحسينه من حيثية معرفة معانيه.

التفسير اصطلاحًا : هو الوقوف على مراد الله تعالى من كلامه بقدر الطاقة البشرية.

فعلم التفسير : أحكام عامة، وقواعد كلية، وأصول مطردة، وقدر مشترك متفق عليه (غالبا) بين جميع أئمة التفسير

ثانيا: اسمه : علم التفسير.

ثالثا: نسبته : نسبة علم التفسير إلى العلوم الشرعية هي نسبة العموم والخصوص المطلق، فعلم التفسير هو أصل جميع العلوم الشرعية ونسبتها إليه نسبة الفرع إلى الأصل، لا جرم إذا من كون علم التفسير هو رئيس العلوم الشرعية قاطبة وأما نسبته للعلوم **غير** الشرعية فهي نسبة التباين مثل نسبة علم التفسير لعلم الأجِنّة الوراثية.

رابعا: موضوعه : الكلمات القرآنية من حيث المراد منها.

خامسا: ثمرته : صون الفهم عن الخطأ في الأصول والفروع في المراد من ألفاظ القرآن الكريم، لئلا يتطرق التحريف والتغيير إلي الثوابت في شريعة القرآن الكريم، فقواعد التفسير

الكلية والجزئية ليست مطلوبة لذاتها، وإنما هي مطلوبة لإتقان معاني القرآن الكريم فهما وتطبيقا.

ويحسن بنا في هذا المقام أيما حسن الإشارة إلى المسلمات الثلاث التي ترشح التفسير بالمأثور على التفسير بالرأي، فالقرآن الكريم هو أهم مصادر التفسير بالمأثور، بل هو أهم مصادر التفسير على الإطلاق، فحيثما أردت التعرف على معنى آية قرآنية كريمة أو ما دونها فعليك أن تطلب ذلك أول ما تطلبه من التنزيل نفسه، فإن وجدت إلى ذلك سبيلا لم يسغ لك بحال من الأحوال أن تعدل به غيره.

أطبقَ على ذلك كافة أهل السنة انطلاقا من مُسلَّمَات ثلاث :

المُسلَّمَةُ الأولى : أن خير من يفسر القول قائله، لأنه أعرف بالذي فيه.

المُسلَّمَةُ الثانية : أن من المعلوم من دين الإسلام بالضرورة أن القرآن الكريم هو الأصل الأول الذي يقوم عليه هذا الدين، والذي لا يمكن أن يتحقق الإيمان بدون الأخذ به والإذعان لجميع ما فيه جملة وتفصيلا.

المُسلَّمَةُ الثالثة : أن من جملة الأوامر الإلهية العديدة في القرآن الكريم نفسه؛ رد جميع الأمر إليه قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ النساء٥٩.

لقد اشتمل القرآن الكريم على أفانين العرب في كلامها كالإيجاز والإطناب، والإجمال والتبيين، والإطلاق والتقييد، والعموم والخصوص، وما أُوجِزَ في مكان قد يُبْسطَ في مكان آخر، وما أُجْمِلَ في موضع قد يُبيَّن في موضع آخر، وما جاء مطلقاً في ناحية قد يلحقه التقييد في ناحية أخرى، وما كان عاماً في آية قد يدخله التخصيص في آية أُخرى.

ولهذا كان لا بد لمن يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى أن ينظر في القرآن أولاً، فيجمع ما تكرر منه في موضوع واحد، ويقابل الآيات بعضها ببعض، ليستعين بما جاء مسهبَاً على معرفة ما جاء موجَزاً، وبما جاء مُبيَّناً على فهم ما جاء مُجمْلاً، وليحمل المُطْلَق على المقيَّد، والعام على الخاص، وبهذا يكون قد فسرَّ القرآنَ بالقرآن، وفهم مراد الله بما جاء عن الله، وهذه مرحلة لا

يجوز لأحد مهما كان أن يُعرض عنها، ويتخطاها إلى مرحلة أخرى، لأن صاحب الكلام أدرى بمعاني كلامه، وأعرف به من غيره.

وعلى هذا، فمن تفسير القرآن بالقرآن : **أن يُفسر ما جاء مجَملاً في القرآن بما جاء في موضع آخر مُبيناً**، وذلك كقصة آدم وإبليس، جاءت مختصرة في بعض المواضع، وجاءت مُسْهَبة مطوَّلة في موضع آخر، ومن تفسير القرآن بالقرآن : **أن يُحمل المجمَل على المبيَّن ليُفسَّر به**، ومنه قوله تعالى : ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ البقرة٣٧

فسَّرها قوله تعالى : ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الأعراف٢٣، ومن تفسير القرآن بالقرآن **حمل المُطْلق على المُقيَّد**، ومنه ما نقله حجة الإسلام الغزالي رحمه الله تعالى عن أكثر الشافعية من حمل المُطْلَق على المُقيَّد في صورة اختلاف الحكمين عند اتحاد السبب، ومثَّلَ له بآية التيمم، فإن الأيدي مُقيَّدة في الوضوء بالغاية في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاة فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ المائدة٦، ومطلقة في التيمم في قوله تعالى : ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ المائدة٦؛ فقيدت في التيمم بالمرافق، ومن أمثلة حمل العام على الخاص؛ نفي الخُلَّة والشفاعة على جهة العموم، في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة٢٥٤، وقد استثنى الله المتقين من نفي الخلة في قوله تعالى : ﴿الأَخِلاَّء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ الزخرف٦٧

سادسًا: فضله : هو من أشرف العلوم لتعلقه بالقرآن الكريم الذي هو كلام رب العالمين، و هو رئيس العلوم الشرعية جميعًا للمعايير الثلاثة التي بها تتمايز العلوم كما أوضحه الإمام الراغب الأصفهاني وهي : [الموضوع - الغاية منه - شدة الحاجة إليه].

سابعًا: استمداده : وقد أُسْتُمِدَّ علم التفسير من العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية.

فمن العلوم الشرعية علم الرواية عن الرسول ﷺ للقرآن الكريم أداء وتفسيرا كما علمه إياها أمين الوحي جبريل عليه السلام، ثم وصل إلينا متواترا من طريق الصحابة والتابعين وأئمة القراءات، وهذه الصفة مستمدة من العلوم واللهجات العربية، وقواعد التفسير التي وضعت في المائة

الثانية للهجرة هي الضوابط لهذه الكيفية، المحددة لها، المستنبطة منها، وهي استجلاء واستخلاص لفهم الصحابة ﷺ لتلاوة الرسول ﷺ وتفسيره للقرآن الكريم.

ثامنًا: مسائله : ومسائل علم التفسير تقسم إلى :

١- مسائل كلية. ٢- ومسائل جزئية.

أمثلة على مسائل التفسير الكلية

الأول : التفسير الثابت بالمأثور مقدم على التفسير بالرأي : قطعا.

الثاني : المعول عليه في كل الكيفيات للنطق بالكلمات القرآنية هو الرواية عن الرسول ﷺ.

الثالث : المعنى الذي يشهد له سياق القرآن الكريم الخاص أو العام مقدم على القول الذي لا يشهد له السياق القرآني.

أمثلة على مسائل التفسير الجزئية

الأول : الفعل الماضي الناقص (كان) مفرغ من دلالته الزمنية إذا استعمل في جنب الله ﷻ.

الثاني : فعلي الترجي (عسى) و (لعل) مجردان من معنى الترجي إذا استعملا في جنب الله ﷻ لاستحالة الترجي في حقه ﷻ.

الثالث : اسم سورة الكهف **ثابت بالتوقيف** من الرسول ﷺ.

فيجب معرفة مسائله : وهي قواعده المتعددة التي تحكُم كيفية فهمه وتفسيره.

تاسعا: حكمه : حُكْمُ تَعَلُّمِه على الأمة الإسلامية : **فرضُ كِفَايَةٍ**، فإذا قام به من يكفي سقط عن الآخرين، وأما حُكْمُ تعلمه على المتخصص : **ففرض عين** يأثم بالتقصير والتهاون فيه.

عاشراً: واضِعُهُ :

أولا : واضعه من حيثية الناحية العملية (التطبيقية) هو الرسول ﷺ، كما تلقاه من جبريل الأمين عليه السلام، فعلم التفسير وحيٌ من عند الله ﷻ.

ثانيا : واضعه من حيثية الناحية العلمية (قواعد علم التفسير النظرية) فهم **علماء التفسير** من صدر الإسلام إلى ما شاء الله تعالى، **فأول كتاب موسوعي وصل إلينا هو تفسير : (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) - للإمام محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ .**

الفرق بين سبب النزول وعلم المناسبة

قال الإمام الزركشي رحمه الله تعالى : [وسبب النزول هو ما نزل بسببه قرآن من واقعة أو قصة أو سؤال، وقد اعتنى بذلك المفسرون في كتبهم وأفردوا فيه تصانيف؛ منهم على بن المديني شيخ البخاري، ومن أشهرها تصنيف **الواحدي** في ذلك، وأخطأ من زعم أنه لا طائل تحته لجريانه مجرى التاريخ وليس كذلك بل له فوائد منها : وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم، ومنها تخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب، ومنها الوقوف على المعنى].

ويقول أيضًا : [واعلم أن المناسبة علم شريف تحزر به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول والمناسبة في اللغة المقاربة، ومنه المناسبة في العلة في باب القياس : **الوصف المقارب للحكم**؛ لأنه إذا حصلت مقاربته له ظن عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم، ولهذا قيل المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول، وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها ومرجعها والله أعلم إلى معنى ما رابط بينهما عام أو خاص عقلي أو حسي أو خيالي وغير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين، والضدين ونحوه، أو التلازم الخارجي كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخبر، **وفائدته :** جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم غير الأجزاء، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي وقال في تفسيره : أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط].

الفرق بين التفسير والتأويل

قال علامة الرافدين الآلوسي رحمه الله تعالى : [قد تعارف من غير نكير أن التأويل إشارة قدسية ومعارف سبحانية تنكشف من سجف العبارات للسالكين وتنهل من سحب الغيب على قلوب العارفين والتفسير غير ذلك].

الخطوات المنهجية لمحاضرة نموذجية في علم تفسير القرآن الكريم

لا بد لمن يفسر القرآن الكريم أن يلم بالعلوم التي هي وسائل لفهم كتاب الله، وأدوات للكشف عن أسراره، ولا بد للمفسِّر أن يطلب المعنى أولاً من كتاب الله، فإن لم يجده طلبه من السُّنَّة، لأنها مفسرة للقرآن ومُوضِّحة له، فإن أعجزه ذلك رجع إلى أقوال الصحابة، لأنهم أدرى بكتاب الله وأعلم بمعانيه، لما اختُصوا به من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، فإن عجز عن هذا كله، ولم يظفر بشيء من تلك المراجع الأولى للتفسير فليس عليه بعد ذلك إلا أن يُعمل عقله، ويقدح فكره، ويجتهد وسعه في الكشف عن مراد الله تعالى، مستنداً إلى الأصول التي تقدَّمت، مبتعداً عن كل الأمور التي تجعل المفسِّر في عِداد المفسِّرين بالرأي المذموم، وعليه بعد ذلك أن ينهج في تفسيره منهجاً يراعى فيه القواعد الآتية، بحيث لا يحيد عنها، ولا يخرج عن نطاقها، **وهذه القواعد هي ما يأتي :**

١. مراعاة التأليف والغرض الذي سِيق له الكلام، والمؤاخاة بين المفردات، مثال موضوعات القرآن المكي تختلف عن موضوعات القرآن المدني فمحور القرآن المكي هو السمعيات المشتمل على الإلهيات والنبوات والغيبيات، ومحور القرآن المدني هو الأحكام المتعلقة بالمجتمع المدني من السلم والحرب والعهود والحدود.
٢. بيان المحاور الموضوعية التي يشتمل عليها المقطع المراد تفسيره.
٣. مراعاة التناسب بين الآيات، فيبيِّن وجه المناسبة، ويربط بين السابق واللاحق من آيات القرآن، حتى يوضِّح أن القرآن لا تفكك فيه، وإنما هو آيات متناسبة يأخذ بعضها بحُجز بعض، فالمصحف الذي بين أيدينا اليوم هو نفسه الموجود في اللوح المحفوظ.
٤. ملاحظة أسباب النزول؛ فكل آية نزلت على سبب فلا بد من ذكره بعد بيان المناسبة وقبل الدخول في شرح الآية، وقد ذكر السيوطي في الإتقان أن الزركشي قال في أوائل البرهان : [قد جرت عادة المفسّرين أن يبدأوا بذكر سبب النزول، ووقع البحث في أنه :

أيهما أولى بالبداءة؟ أيُبدأ بذكر السبب، أو بالمناسبة لأنها المصحّحة لنظم الكلام، وهي سابقة على النزول؟ قال : والتحقيق التفصيل بين أن يكون وجه المناسبة متوقفاً على سبب النزول كقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ النساء٥٨، فهذا ينبغي فيه تقديم ذكر السبب، لأنه حينئذ من باب تقديم الوسائل على المقاصد. وإن لم يتوقف على ذلك، فالأولى تقديم وجه المناسبة].

٥. ذكر معاني الألفاظ التي تحتاج للبيان، والكشف عن الوجوه التي تحتملها بين الحقيقة والمجاز.
٦. بيان فقه التنزيل للآيات الكريمة وهو الحيثية التطبيقية في درس تفسير القرآن الكريم.
٧. إظهار أوجه الإعجاز التي تشتمل عليها الآيات القرآنية الكريمة.
٨. ذكر الهدي القرآني للآيات الكريمة وهو بيان ما ترشد إليه الآيات القرآنية الكريمة.

فائدة منهجية في كيفية التعامل مع الإسرائيليات في التفسير

ذكر بعضٌ من المفسرين هذه الروايات الإسرائيلية في التفسير مثل الأئمة الطبري، والبغوي، والخازن، والسيوطي، وهذه الروايات بهذا التفصيل فيما يتعلق بخروج الفتية وأسمائهم واسم كلبهم.. بجملتها متلقاة عن أهل الكتاب الذين أسلموا وحملها عنهم بعض الصحابة والتابعين وحكوه عنهم لغرابته والعجب منه، وأضع هنا كلمات لبعض العلماء المحققين والمفسرين حيال هذه الروايات تغنينا عن التعليق عليها على امتداد التفسير في مواضع كثيرة : **قال الحافظ ابن كثير في التفسير** : [... ولم يخبرنا الله تعالى بمكان هذا الكهف، ولا في أيّ البلاد من الأرض، إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعي، وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالا.. والله أعلم بأيّ بلاد الله هو ولو كان فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله إليه.. فأعلمنا تعالى بصفته ولم يعلمنا بمكانه]. **وبعد أن عرض لبعض الأقوال عن كلب أصحاب الكهف ولونه قال** : [واختلفوا في لونه على أقوال لا حاصل لها ولا طائل تحتها ولا دليل عليها ولا حاجة إليها بل هي مما ينهي عنه؛ فإن مستندها رجم بالغيب]. **وقال عن أسماء الفتية** : [... وفي تسميتهم بهذه الأسماء واسم كلبهم نظر في صحته والله أعلم فإن غالب ذلك متلقى من أهل الكتاب، وقد قال تعالى : ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أي : سهلاً هينًا فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة]. **وقال الحافظ ابن كثير في**

البداية والنهاية : [.. وقد ذكر كثير من القصاص والمفسرين لهذا الكلب نبأ وخبرا طويلا أكثره متلقى من الإسرائيليات وكثير منها كذب ومما لا فائدة فيه كاختلافهم في اسمه ولونه]. **وقال الشهيد سيد قطب في كتابه "في ظلال القرآن"** : [تجيء قصة أصحاب الكهف فتعرض نموذجًا للإيمان في النفوس المؤمنة كيف تطمئن به وتؤثره على زينة الأرض ومتاعها وتلجأ به إلى الكهف حين يعز عليها أن تعيش به مع الناس وكيف يرعى الله هذه النفوس المؤمنة ويقيها الفتنة ويشملها بالرحمة، وفي القصة روايات شتى وأقاويل كثيرة فقد وردت في بعض الكتب القديمة وفي الأساطير بصور شتى ونحن نقف فيها عند ما جاء في القرآن فهو المصدر الوحيد المستيقن ونطرح سائر الروايات والأساطير التي اندسّت في التفاسير بلا سند صحيح وبخاصة أن القرآن الكريم قد نهي عن استفتاء غير القرآن فيها وعن المراء فيها والجدل رجما بالغيب].
وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في "أضواء البيان" : [واعلم أن قصة أصحاب الكهف وأسمائهم وفي أيّ محل من الأرض كانوا كل ذلك لم يثبت فيه عن النبي ﷺ شيء زائد على ما في القرآن وللمفسرين في ذلك أخبار كثيرة إسرائيلية أعرضنا عن ذكرها لعدم الثقة بها].

إضاءات على المحور الموضوعي لسورة الكهف

سورة الكهف مكية بالإجماع، وعدد آياتها :

- **مائة وعشر آيات (١١٠) عند الكوفيين** "هذا العدد المعتمد معنا في مقررنا حسب الدكتور"
- مائة وإحدى عشرة آية (١١١) عند **البصريين**.
- ومائة وخمس آيات (١٠٥) عند **المدنيين والمكيين**.
- ومائة وست (١٠٦) عند **الشاميين**.

ومدارس العدّ للآيات القرآنية الكريمة هي :

١) مدرسة الحجازيين (المدنيين والمكيين).
٢) مدرسة الشاميين.
٣) مدرسة الكوفيين.
٤) مدرسة البصريين.

مقصود سورة الكهف : إقامة الدليل على أن هذا الكتاب **قيم** ليتبع في كل حال، وأعظم ما يهدى إليه الإيمان بالله **ونفي الشريك** عنه، ومجمعه **الإيمان بالغيب** والآخرة، ومداره : **الإيمان بالبعث**، الذي أعربت عنه قصة أصحاب الكهف، التي مدارها الإيمان بالغيب، ولذلك سميت بها السورة، وكانت بذلك أحق من قصة موسى عليه الصلاة والسلام مع الخضر ، لأن خبرهم أخفى ما في السورة.

فضائل سورة الكهف

أخرج مسلم في فضل سورة الكهف من حديث أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : (مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ **عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ**)، وأخرج الشيخان في فضل سورة الكهف من حديث الْبَرَاءِ قَالَ كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ وَإِلَى جَانِبِهِ حِصَانٌ مَرْبُوطٌ بِشَطَنَيْنِ فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ فَجَعَلَتْ تَدْنُو وَتَدْنُو وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى النبي ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ : (تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ بِالْقُرْآنِ). وهذا الرجل هو **أسيد بن حضير**، وأخرج الإمام أحمد من حديث سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : (مَنْ قَرَأَ أَوَّلَ سُورَةِ الْكَهْفِ وَآخِرَهَا كَانَتْ لَهُ نُوراً مِنْ قَدَمِهِ إِلَى رَأْسِهِ وَمَنْ قَرَأَهَا كُلَّهَا كَانَتْ لَهُ نُوراً مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ).

الموضوعات التي تناولتها سورة الكهف

سورة الكهف إحدى سور خمس **بدئت بالحمد لله** وهي : (الفاتحة - الأنعام - الكهف - سبأ - فاطر)، والقصص هي مادة هذه السورة، ففي **أولها تجيء قصة أصحاب الكهف**، وبعدها قصة **أصحاب الجنتين**، ثم إشارة خاطفة لقصة **آدم وإبليس**، وفي وسطها قصة **موسى عليه الصلاة والسلام مع العبد الصالح**، وفي نهاية السورة الكريمة تأتي قصة **ذي القرنين**، كما تشتمل السورة على **تعقيبات لتلك القصص**، كما ذكرت **بعضا من مشاهد الدنيا والآخرة**، وفي الختام تنتهي السورة بقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ الكهف.١١٠ في إعلان الوحدانية وإنكار الشرك، وإثبات الوحي والرسالة، والتمييز المطلق بين الذات الإلهية وذوات الحوادث.

إضاءة : الموضوع الرئيسي لسورة الكهف : [**إثبات عقيدة البعث**].

(المقطع الأول)

الكلام على رتبة القرآن الكريم العلية، والدعوة إلى التوحيد ونبذ الشريك

المناسبة : قال الإمام البقاعي في مناسبة سورة الكهف بعد سورة الإسراء [لما ختمت سورة الإسراء بأمر الرسول ﷺ بالحمد عن التنزه عن صفات النقص لكونه أعلم الخلق بذلك ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ الإسراء١١١ بدئت هذه بالإخبار باستحقاقه سبحانه الحمد على صفات الكمال التي منها البراءة عن كل نقص، منبهًا بذلك على وجوب حمده بما شرع من الدين على هذا الوجه الأحكم بهذا الكتاب القيم الذي خضعت لجلاله العلماء الأقدمون، وعجز عن معارضته الأولون والآخرون، الذي هو الدليل على ما ختمت به تلك من العظمة والكمال، والتنزه والجلال، فقال ملقنًا لعباده حمده، معلما لهم كيف يثنون عليه، مفقهًا لهم في اختلاف العبارات باختلاف المقامات قال الله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا{١}﴾].

قوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا{١} قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً{٢} مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً{٣} وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً{٤} مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً{٥} فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً{٦} إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً{٧} وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً{٨}﴾

{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ} أثنى الله على نفسه بإنعامه على خلقه، وخص رسوله ﷺ بالذكر لأن إنزال القرآن عليه كان نعمة عليه على الخصوص، وعلى سائر الناس على العموم، {الْكِتَابَ} أي: الكتابَ الكاملَ الغنيَّ عن الوصف بالكمال المعروف بذلك من بين الكتبِ، الحقيقَ باختصاص اسمِ الكتابِ به، وهو عبارةٌ عن جميع القرآنِ أو عن جميع المُنْزَل حينئذ، وفي وصفه تعالى بالموصول إشعارٌ بعلّية ما في حيز الصلةِ لاستحقاق الحمدِ وإيذانٌ بعِظم شأنِ التنزيلِ الجليلِ، كيف لا وعليه يدور فَلكُ سعادةِ الدارين، وفي التعبير عن الرسول ﷺ بالعبد مضافاً إلى ضمير الجلالة تنبيهٌ على بلوغه ﷺ إلى أعلى معارجِ العبادة وتشريفٌ وفيه

إشعارٌ بأن شأنَ الرسولِ أن يكون عبداً للمرسِل لا كما زعمت النصارى في حق عيسى عليه السلام، وتأخيرُ المفعول الصريح عن الجار والمجرور مع أن حقه التقديمُ عليه ليتصل به قوله تعالى : {وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا} أي : شيئاً من العِوَج بنوع اختلالٍ في النظم وتَنافٍ في المعنى أو انحرافٍ عن الدعوة إلى الحق وهو في المعاني كالعِوَج في الأعيان {قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً} {قَيِّماً} أي : مستقيما. قال ابن عباس : عدلا. وقال الفراء : قيما على الكتب كلها أي : مصدقا لها ناسخا لشرائعها.

وقال قتادة : معناه : أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، ولكن جعله قيما ولم يكن مختلفا على ما قال الله تعالى : {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً}النساء٨٢ .

{لِّيُنذِرَ}متعلقٌ بـ (أنزل) والفاعلُ ضميرُ الجلالة كما في الفعلين المعطوفين عليه، والإطلاقُ عن ذكر المفعولِ الأول للإيذان بأن ما سيق له الكلامُ هو المفعولُ الثاني وأن الأولَ ظاهرٌ لا حاجةَ إلى ذكره، أي : أنزل الكتابَ لينذر بما فيه الذين كفروا به {بَأْساً} أي : عذاباً {بَأْساً شَدِيداً مِن لَّدُنْهُ} صادراً من عنده نازلاً من قِبله بمقابلة كفرِهم وتكذيبهم، {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ} أي : المصدقين به {الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ} الأعمالَ الصالحةَ التي بيّنت في تضاعيفه، وإيثارُ صيغة الاستقبال في الصلة للإشعار بتجدد الأعمالِ الصالحة واستمرارِها، وإجراءُ الموصول على موصوفه المذكورِ لما أن مدارَ قَبولِ الأعمالِ هو الإيمان {أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً} أي : بأن لهم بمقابلة إيمانِهم وأعمالِهم المذكورة هو الجنةُ وما فيها من المثوبات الحُسنى، {مَاكِثِينَ فِيهِ} حال من الضمير المجرور في لهم أي: مقيمين فيه {أَبَداً} من غير انتهاء أي خالدين فيه، {وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً} أي وينذرَ من بين سائر الكفرةِ هؤلاء المتفوّهين بمثل هاتيك العظيمةِ، وتركُ إجراءِ الموصولِ على الموصوف كما فُعل في قوله تعالى : {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ}، للإيذان بكفاية ما في حيز الصلةِ في الكفر على أقبح الوجوه، وإيثارُ صيغة الماضي في الصلة للدلالة على تحقق صدورِ تلك الكلمة القبيحة عنهم فيما سبق، ويجوز أن يكون الفاعلُ في الأفعال الثلاثة ضميرَ الكتاب أو ضميرَ الرسول ﷺ.

{مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً}الكهف٥، {مَّا لَهُم بِهِ} أي: باتخاذه سبحانه وتعالى ولداً {مِنْ عِلْمٍ} مرفوعٌ على الابتداء أو الفاعلية لاعتماد

الظرفِ، و (مِن) مزيدةٌ لتأكيد النفي والجملةُ حاليةٌ أو مستأنَفةٌ لبيان حالِهم في مقالهم، أي: ما لهم بذلك شيءٌ من علم أصلاً لا لإخلالهم بطريقه مع تحقيق المعلومِ أو إمكانِه بل لاستحالته في نفسه {وَلَا لِآبَائِهِمْ} الذين قلدوهم فتاهوا جميعاً في تيه الجهالة والضلالة أو ما لهم علمٌ بما قالوه أهو صوابٌ أم خطأٌ، بل إنما قالوه رمياً عن عمًى وجهالةٍ من غير فكر ورويّةٍ كما في قوله تعالى : {وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ}الأنعام..١ أو بحقيقة ما قالوه وبعظم رُتبتِه في الشناعة كما في قوله تعالى : {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً{٨٨} لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً{٨٩} تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً{٩٠} أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً{٩١} وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً{٩٢} إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً{٩٣} لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً{٩٤} وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً{٩٥}} وهو الأنسب بقوله تعالى: {كَبُرَتْ كَلِمَةً} أي : عظُمت مقالتُهم هذه في الكفر والافتراءِ لما فيها من نسبته سبحانه إلى ما لا يكاد يليق بجناب كبريائِه، والفاعلُ في كبُرت إما ضميرُ المقالةِ المدلولِ عليها بـ (قالوا) و (كلمةً) نُصبَ على التمييز أو ضميرٌ مبهمٌ مفسَّرٌ بما بعده من النكرة المنصوبة تمييزاً كبئس رجلاً، والمخصوصُ بالذم محذوفٌ تقديرُه كبُرت هي كلمةً خارجةً من أفواههم، وقيل : من كلمة فحذف "من" فانتصب بنزع الخافض {تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ} صفةٌ للكلمة مفيدةٌ لاستعظام اجترائِهم على التفوه بها، وإسنادُ الخروجِ إليها مع أن الخارجَ هو الهواءُ المتكيفُ بكيفية الصوتِ لملابسته بها {إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً} ما يقولون في ذلك الشأنِ، أي : إلا قولاً كذباً لا يكاد يدخُل تحت إمكانِ الصدق أصلاً، والضميران لهم ولآبائهم.

{فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً }الكهف٦، مُثّل حالُه عليه الصلاة والسلام في شدة الوجد على إعراض القومِ وتولّيهم عن الإيمان بالقرآن وكمالِ التحسّر عليهم بحال من يُتوقع منه إهلاكُ نفسه إثرَ فواتِ ما يُحبّه عند مفارقة أحبّته تأسفاً على مفارقتهم وتلهفاً على مهاجَرتهم، فقيل على طريقة التمثيلِ حملاً له ﷺ على الحذر والإشفاق من ذلك {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ} أي: مُهلكٌ {نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ} غماً ووجداً على فراقهم وقرئ بالإضافة {إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً} أي: القرآنِ الذي عبّر عنه في صدر السورةِ بالكتاب، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ ثقةً بدلالة ما سبق عليه، وقرئ بأنْ المفتوحةِ أي : لأن لم يؤمنوا، فإعمالُ باخعٌ بحمله على حكاية حالٍ ماضيةٍ لاستحضار الصورة كما في قوله ﷻ :

{وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ}، {أَسَفاً} أي : حزنا، وقيل : غضبا {فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ}الزخرف٥٥. مفعولٌ له (مفعول لأجله) لباخعٌ أي : لفَرْط الحزنِ والغضبِ، أو حالٌ مما فيه الضمير أن متأسفاً عليهم، {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً} استئنافٌ وتعليلٌ لما في لعل من معنى الإشفاقِ، أي : إنا جعلنا ما عليها ممن عدا مَنْ وُجّه إليه التكليفُ من الزخارف حيواناً كان أو نباتاً أو معدِناً كقوله تعالى : {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}البقرة٢٩، {زِينَةً} مفعولٌ ثانٍ للجعل إن حُمل على معنى التصييرِ، أو حالٌ إن حمل على معنى الإبداعِ، واللام في {لَّهَا} إما متعلقةٌ بزينةً أو بمحذوف هو صفةٌ لها أي : كائنةً لها أي : ليتمتع بها الناظرون من المكلفين وينتفعوا بها نظراً واستدلالاً، فإن الحياتِ والعقاربَ من حيث تذكيرُهما لعذاب الآخرة من قبيل المنافِع بل كلُّ حادثٍ داخلٌ تحت الزينة من حيث دَلالتُه على وجود الصانعِ ووَحدتِه فإن الأزواجَ والأولادَ أيضاً من زينة الحياةِ الدنيا بل أعظمُها ولا يمنع ذلك كونُهم من جملة المكلفين فإنهم من جهة انتسابهم إلى أصحابهم داخلون تحت الزينةِ ومن جهة كونهم مكلفين داخلون تحت الابتلاء، {لِنَبْلُوَهُمْ} متعلقٌ بجعلنا أي : جعلنا ما جعلنا لنعاملَهم معاملةَ من يختبرهم {أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} فنجازيهم بالثواب والعقابِ حسبما تبين المحسنُ من المسيء وامتازت طبقاتُ أفرادِ كلَ من الفريقين حسب امتيازِ مراتبِ علومِهم المرتبة على أنظارهم وتفاوتِ درجاتِ أعمالِهم المتفرّعةِ على ذلك، وحُسنُ العملِ الزهدُ فيها وعدمُ الاغترار بها والقناعةُ باليسير منها وصرفُها على ما ينبغي والتأملُ في شأنها وجعلُها ذريعةً إلى معرفة خالقها والتمتعُ بها حسبما أذن له الشرعُ وأداءُ حقوقها والشكرُ لها، لا اتخاذُها وسيلةً إلى الشهوات والأغراضِ الفاسدة كما يفعله الكفرةُ وأصحابُ الأهواء، {وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ} فيما سيأتي عند تناهي عُمرِ الدنيا {مَا عَلَيْهَا} من المخلوقات قاطبةً بإفنائها بالكلية وإنما أُظهر في مقام الإضمارِ لزيادة التقريرِ أو لإدراج المكلفين فيه، {صَعِيداً} مفعولٌ ثانٍ للجعل، والصعيدُ الترابُ أو وجهُ الأرضِ، قال أبو عبيدةَ : هو المستوي من الأرض، وقال الزجاجُ : هو الطريقُ الذي لا نبات فيه {جُرُزاً} تراباً لا نباتَ فيه بعد ما كان يَتعجَّب من بهجته النُّظارُ وتتشرف بمشاهدته الأبصارُ، يقال : أرضٌ جرُزٌ لا نباتَ فيها وسَنةٌ جرُزٌ لا مطر فيها. قال الفراء : جُرِزَت الأرضُ فهي مجرُوزة أي : ذهب نباتُها بقحط أو جراد، ويقال: جرَزها الجرادُ والشاةُ والإبلُ إذا أكلت ما عليها، وهذه الجملةُ لتكميل ما في السابقة من التعليل، والمعنى لا تحزنْ بما عاينْتَ من القوم من تكذيب ما أنزلنا

عليك من الكتاب فإنا قد جعلنا ما على الأرض من فنون الأشياءِ زينةً لها لنختبرَ أعمالَهم فنجازِيَهم بحسبها وإنا لَمُفْنون جميعَ ذلك عن قريب ومجازون لهم بحسب أعمالهم.

(المقطع الثاني)

المشهد الأول من قصة أصحاب الكهف

قوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً{٩} إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً{١٠} فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً{١١} ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً{١٢} نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى{١٣} وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً{١٤} هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً{١٥}﴾.

{أَمْ حَسِبْتَ} الخطابُ لرسول الله ﷺ، والمرادُ إنكارُ حُسبانِ أمّته، و (أَمْ) منقطعةٌ مقدّرة بـ (بل) التي هي للانتقال من حديث إلى حديث لا للإبطال، وبهمزة الاستئنافِ عند الجمهور وبل وحدها عند غيرِهم أي : بل أحسبت {أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا} في بقائهم على الحياة مدةً طويلةً من الدهر {مِنْ آيَاتِنَا} من بين آياتِنا التي من جملتها ما ذكرناه مِنْ جعْل ما على الأرض زينةً لها للحكمة المشارِ إليها ثم جعلِ ذلك كلِّه صعيداً جرُزاً كأن لم تغْنَ بالأمس {عَجَباً} أي: آيةً ذاتَ عجَبٍ وضْعاً له موضعَ المضاف أو وصفاً لذلك بالمصدر مبالغةً، وهو خبرٌ لكانوا ومن آياتنا حالٌ منه، والمعنى أن قصّتَهم وإن كانت خارقةً للعادات ليست بعجيبة بالنسبة إلى سائر الآياتِ التي من جملتها ما ذكر من تعاجيب خلق الله تعالى بل هي عندها كالنزْر الضئيل، والكهفُ الغارُ الواسعُ في الجبل، والرقيمُ هو لوحٌ رُقمت فيه أسماؤُهم وجُعل على باب الكهف، وقيل : هو الوادي الذي فيه الكهفُ فهو من رَقْمة الوادي أي : جانبِه، وقيل : الجبلُ، وقيل : قريتُهم، وقيل : أصحابُ الرقيم آخرون وكانوا ثلاثةً انطبق عليهم الغارُ فنجَوْا بذكر كل منهم أحسنَ عمله على ما فُضِّل في الصحيحين.

{إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ} هم أصحابُ الكهف، أوثر الإظهارُ على الإضمار لتحقيق ما كانوا عليه في أنفسِهم من حال الفتوة فإنهم كانوا فتيةً من أشراف الرومِ أرادهم "دقيانوسُ" على الشرك فهربوا منه بدينهم ولأن صاحبيّةَ الكهف من فروع التجائِهم إلى الكهف فلا يناسب اعتبارُها معهم قبل بيانه {إِلَى الْكَهْفِ} بجلبهم للجلوس واتخذوه مأوى إذ قالوا {رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ} من خزائن رحمتِك الخاصةِ المكنونةِ عن عيون أهلِ العادات، فمن ابتدائيةٌ متعلقةٌ بآتنا {رَحْمَةً} خاصةً تستوجب المغفرةَ والرزقَ والأمنَ من الأعداء { وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا} الذي نحن عليه من مهاجَرة الكفارِ والمثابرة على طاعتك، وأصلُ التهيئةِ إحداثُ هيئةِ الشيء، أي : أصلِحْ ورتّب وأتممْ لنا من أمرنا {رَشَداً} إصابةً للطريق الموصلِ إلى المطلوب واهتداءً إليه،{فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ} ثم أنَمناهم على طريقة التمثيل المبنيّ على تشبيه الإنامةِ الثقيلةِ المانعةِ عن وصول الأصواتِ إلى الآذان بضرب الحجابِ عليها، وتخصيصُ الآذان بالذكر مع اشتراك سائرِ المشاعرِ لها في الحجْب عن الشعور عند النومِ لما أنها المحتاجُ إلى الحجب عادة، إذ هي الطريقةُ للتيقظ غالباً لا سيما عند انفرادِ النائم واعتزالِه عن الخلق، {فِي الْكَهْفِ} ظرف مكان لضربنا {سِنِينَ} ظرفُ زمان له باعتبار بقائِه لا ابتدائِه {عَدَداً} أي : ذواتَ عدد أو تُعدّ عدداً على أنه مصدرٌ أو معدودةً على أنه بمعنى المفعول، ووصفُ السنين بذلك إما للتكثير وهو الأنسبُ بإظهار كمالِ القدرة أو للتقليل وهو الأليقُ بمقام إنكارِ كون القصة عجباً من بين سائر الآياتِ العجيبة فإن مدة لُبثِهم كبعض يومٍ عنده ﷻ.

{ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ} ثم أيقظناهم من تلك النومة الثقيلة الشبيهة بالموت {لِنَعْلَمَ} بنون العظمة، فهو غايةٌ للبعث لكن لا بجعل العلمِ مجازاً من الإظهار والتمييز، أو بحمله على ما يصِح وقوعُه غايةً للبعث الحادثِ من العلم الحالي الذي يتعلق به الجزاءُ كما في قوله تعالى : {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ}البقرة١٤٣ ونظائِره التي يتحقق فيها العلمُ بتحقق متعلقة قطعاً، فإن تحويلَ القِبلة قد ترتب عليه تحزّبُ الناس إلى متّبعٍ ومنقلب، وتعلق بكل من الفريقين العلمُ الحالي والإظهارُ والتمييزُ، وهو المرادُ هاهنا فالمعنى بعثناهم لنعاملهم معاملةَ من يختبرهم.

{أَيُّ الْحِزْبَيْنِ} أي : الفريقين المختلفَين في مدة لُبثِهم بالتقدير والتفويض {أَحْصَى} أي : أضبط {لِمَا لَبِثُوا} أي: للبثهم {أَمَداً} أي : غايةً فيظهر لهم عجزُهم ويفوضوا ذلك إلى العليم الخبير ويتعرفوا حالَهم وما صنع الله تعالى بهم من حفظ أبدانِهم وأديانِهم فيزدادوا يقيناً بكمال

قدرته وعلمِه ويستبصروا به أمرَ البعث ويكون ذلك لطفاً لمؤمني زمانِهم وآيةً بينة لكفارهم، وقد اقتُصر هاهنا من تلك الغايات الجليلةِ على ذكر مبدئِها الصادرِ عنه ﷻ وفيما سيأتي على ما صدر عنهم من التساؤل المؤدّي إليها، {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ} شروعٌ في تفصيل ما أُجمل فيما سلف من قوله تعالى : {إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ} ثم نحن نخبرك بتفاصيل أخبارِهم، {نَبَأَهُم} النبأُ الخبرُ الذي له شأنٌ وخطرٌ {بِالْحَقِّ} إما صفةٌ لمصدر محذوف أو حالٌ من ضمير نقصّ أو من (نبأَهم) أو صفةٌ له على رأي : من يرى حذفَ الموصولِ مع بعض صلتِه، أي : نقصّ قَصصاً ملتبساً بالحق أو نقصّه ملتبسين به أو نقص نبأهم ملتبساً به أو نبأهم الملتبسَ به، ونبأهم حسبما ذكره محمدُ بن إسحاقَ بنِ يسارَ أنه مرَج أهلُ الإنجيل وعظُمت فيهم الخطايا وطغت ملوكُهم فعبدوا الأصنامَ وذبحوا للطواغيت، وكان ممن بالغ في ذلك وعتا عتوًّا كبيراً دقيانوس فإنه غلا فيه غلوًّا شديداً فجاس خلالَ الديار والبلاد بالعبث والفسادِ وقتل مَنْ خالفه من المتمسكين بدين المسيحِ عليه السلام، وكان يتبع الناسَ فيخيّرهم بين القتل وعبادةِ الأوثانِ فمن رغِب في الحياة الدنيا الدنية يصنع ما يصنع ومن آثر عليها الحياةَ الأبديةَ قتله وقطعه إربا وعلقها في سور المدينةِ وأبوابِها، فلما رأى الفتيةُ ذلك وكانوا عظماءَ أهلِ مدينتهم، وقيل : كانوا من خواصّ الملك، قاموا فتضرعوا إلى الله عز وجل واشتغلوا بالصلاة والدعاء، فبينما هم كذلك إذ دخل عليهم أعوانُ الجبار فأحضروهم بين يديه فقال لهم ما قال وخيّرهم بين القتل وبين عبادةِ الأوثان، فقالوا : إن لنا إلها ملأ السمواتِ والأرضَ عظمتُه وجبروتُه لن ندعوَ من دونه أحداً، ولن نُقِرّ بما تدعونا إليه إبداً فاقضِ ما أنت قاضٍ، فأمر بنزع ما عليهم من الثياب الفاخرةِ وأخرجهم من عنده وخرج هو إلى مدينة نينوى لبعض شأنِه وأمهلهم إلى رجوعه ليتأملوا في أمرهم فإن تبِعوه وإلا فعل بهم ما فعل بسائر المسلمين، فأزمعت الفتيةُ على الفرار بالدين والالتجاء إلى الكهف الحصين، فأخذ كل منهم من بيت أبيه شيئاً فتصدّقوا ببعضه وتزوّدوا بالباقي فأوَوا إلى الكهف فجعلوا يصلّون فيه آناءَ الليل وأطرافَ النهار ويبتهلون إلى الله سبحانه بالأنين والجُؤار وفوّضوا أمرَ نفقتِهم إلى يمليخا، فكان إذا أصبح يضع عنه ثيابَه الحِسانَ ويلبس لباس المساكين ويدخُل المدينة ويشتري ما يُهمّهم ويتحسس ما فيها من الأخبار ويعود إلى أصحابه، فلبِثوا على ذلك إلى أن قدم الجبارُ المدينةَ فطلبهم وأحضر آباءَهم فاعتذروا بأنهم عصَوْهم ونهبوا أموالَهم وبذروها في الأسواق وفرّوا إلى الجبل، فلما رأى يمليخا ما رأى من الشر رجع إلى أصحابه وهو يبكي ومعه قليلٌ من الزاد

فأخبرهم بما شهده من الهول ففزِعوا إلى الله ﷻ وخرّوا له سُجّداً ثم رفعوا رؤوسهم وجلسوا يتحدثون في أمرهم، فبينما هم كذلك إذ ضرب الله تعالى على آذانهم فناموا ونفقتُهم عند رؤوسهم، فخرج دقيانوس في طلبهم بخيله ورَجِلِه فوجدوهم قد دخلوا الكهفَ فأمر بإخراجهم فلم يُطِق أحدٌ أن يدخله فلما ضاق بهم ذرعاً قال قائل منهم : أليس لو كنتَ قدَرتَ عليهم قتلتَهم؟ قال: بلى، قال: فابْنِ عليهم باب الكهف ودعهم يموتوا جوعاً وعطشاً وليكن كهفُهم قبراً لهم، ففعل ثم كان من شأنهم ما قص الله ﷻ عنهم، {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ} استئنافٌ تحقيقيٌّ مبني على تقدير السؤالِ من قبل المخاطَب، والفتيةُ جمعُ قلة للفتى كالصبية للصبي{آمَنُوا بِرَبِّهِمْ} أوثر الالتفاتُ للإشعار بعلّية وصف الربوبية لإيمانهم ولمراعاة ما صدر عنهم من المقالة حسبما سيُحكى عنهم {وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} بأن ثبتناهم على ما كانوا عليه من الدين وأظهرنا لهم مكنوناتِ محاسنِه، وفيه التفاتٌ من الغيبة إلى ما عليه سبكُ النظمِ سباقاً وسياقاً من التكلم،{وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ} ثم قويناها حتى اقتحموا مضايقَ الصبر على هجر الأهلِ والأوطانِ والنعيم والإخوانِ، واجترأوا على الصدْع بالحق من غير خوف، وحذروا الردَّ على "دقيانوسَ" الجبار {إِذْ قَامُوا} منصوبٌ بربطنا والمرادُ بقيامهم انتصابُهم لإظهار شعارِ الدين {فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} ضمّنوا دعواهم ما يحقق فحواها ويقضي بمقتضاها فإن ربوبيتَه ﷻ لهما تقتضي ربوبيتَه لما فيهما أي : اقتضاءٍ، {لَن نَّدْعُوَ} لن نعبدَ أبداً {من دُونِهِ} معبوداً آخرَ لا استقلالاً ولا اشتراكاً، والعدولُ عن أن يقال : ربًّا للتنصيص على رد المخالفين حيث كانوا يسمون أصنامَهم آلهةً وللإشعار بأن مدارَ العبادة وصفُ الألوهية وللإيذان بأن ربوبيتَه تعالى بطريق الألوهيةِ لا بطريق المالكية المجازية {لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً} أي: قولاً ذا شططٍ أي : تجاوزَ عن الحد أو قولاً هو عينُ الشطط، على أنه وُصفَ بالمصدر مبالغةً ثم وحيث كانت العبادةُ مستلزِمةً للقول لما أنها لا تَعرَى عن الاعتراف بألوهية المعبود والتضرّعِ إليه قيل : لقد قلنا، وإذاً جوابٌ وجزاءٌ أي : لو دعَونا من دونه إلها والله لقد قلنا قولاً خارجاً عن حد العقول مُفْرِطاً في الظلم، {هَؤُلَاءِ} هو مبتدأ وفي اسم الإشارة تحقيرٌ لهم {قَوْمُنَا} عطفُ بيانٍ له {اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً} خبرُه وفيه معنى الإنكار {لَّوْلَا يَأْتُونَ} تخصيصٌ فيه معنى الإنكارِ والتعجيزِ أي : هلا يأتون {عَلَيْهِم} على ألوهيتهم أو على صحة اتخاذِهم لها آلهةً {بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ} بحجة ظاهرةِ الدلالةِ على مُدّعاهم وهو تبكيتٌ لهم وإلقامُ حجرٍ {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً} بنسبة الشريكِ

إليه تعالى عن ذلك علواً كبيراً، والمعنى أنه أظلمُ من كل ظالمٍ، وإن كان سبكُ النظمِ على إنكار الأظلميةِ من غير تعرضٍ لإنكار المساواة.

(المقطع الثالث)

المشهد الثاني من قصة أصحاب الكهف

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً{١٦} وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً{١٧} وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً{١٨} وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً{١٩} إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً{٢٠}﴾.

{وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ} أي : فارقتموهم في الاعتقاد أو أردتم الاعتزالَ الجُسمانيَّ {وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ} عطفٌ على الضمير المنصوبِ و (ما) موصولةٌ أو مصدريةٌ، أي: إذ اعتزلتموهم ومعبوديهم إلا الله أو وعبادتَهم إلا عبادةَ الله وعلى التقديرين فالاستثناءُ متصلٌ، ويجوز كونُ (ما) نافيةً على أنه إخبارٌ من الله تعالى عن الفتية بالتوحيد معترضٌ بين (إذْ) وجوابِه {فَأْوُوا} أي: التجِئوا {إِلَى الْكَهْفِ} قال الفراء : هو جوابُ إذ، كما تقول : إذْ فعلتَ فافعل كذا، وقيل : هو دليلٌ على جوابه أي : إذ اعتزلتموهم اعتزالاً اعتقادياً فاعتزلوهم اعتزالاً جُسمانياً، أو إذا أردتم اعتزالَهم فافعلوا ذلك بالالتجاء إلى الكهف {يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم} يبسُطْ لكم ويوسِّعْ عليكم مالكُ أمرِكم {مِّن رَّحمته} في {وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً} يسهلْ لكم الذي أنتم بصدده من الفرار بالدين ما ترتفقون وتنتفعون به.

{وَتَرَى الشَّمْسَ} بيانٌ لحالهم بعد ما أَوَوا إلى الكهف، ولم يصرح به إيذاناً بعدم الحاجةِ إليه لظهور جرَيانِهم على موجب الأمرِ به لكونه صادراً عن رأي : صائبٍ وتعويلاً على ما سلف في صدر السورة من قوله سبحانه: {إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ} وما لحق من إضافة الكهفِ إليهم وكونِهم في فجوة منه، والخطابُ للرسول ﷺ أو لكل أحد ممن يصلُح للخطاب، وليس المرادُ به الإخبارَ بوقوع الرؤيةِ تحقيقاً بل الإنباءُ بكون الكهفِ بحيث لو رأيته ترى الشمس {إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ} أي : تتزاوَر وتتنحّى بحذف إحدى التاءين، وهي من الزَّوَر وهو الميل {عَن كَهْفِهِمْ} الذي أووا إليه فالإضافة لأدنى ملابسة {ذَاتَ الْيَمِينِ} أي : جهةَ ذاتِ يمين الكهفِ عند توجه الداخلِ إلى قعره أي : جانبه الذي يلي المغرِبَ فلا يقع عليهم شعاعُها فيؤذيهم {وَإِذَا غَرَبَت} أي : تراها عند غروبها {تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ} أي : تقطَعهم من القطيعة والصَّرْم ولا تقربهم أي : جهةَ ذاتِ شمال الكهف أي : جانبه الذي يلي المشرِق، وكان ذلك بتصريف الله سبحانه على منهاج خرقِ العادةِ كرامةً لهم، وقوله تعالى : {وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ} جملةٌ حالية مبينةٌ لكون ذلك أمراً بديعاً أي : تراها تميل عنهم يميناً وشمالاً ولا تحوم حولهم مع أنهم في متّسع من الكهف معرَّضٍ لإصابتها لولا أن صرفتْها عنهم يدُ التقدير.

{ذَلِكَ} أي : ما صنع الله بهم من تزاوُر الشمسِ وقَرْضِها حالتي الطلوعِ والغروب مع كونهم في موقع شعاعِها {مِنْ آيَاتِ اللَّهِ} العجيبةِ الدالةِ على كمال علمِه وقدرته وحقية التوحيدِ وكرامةِ أهله عنده سبحانه وتعالى، {مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ} إلى الحق بالتوفيق له الذي أصاب الفلاحَ، والمرادُ إما الثناءُ عليهم والشهادةُ لهم بإصابة المطلوبِ والإخبارُ بتحقيق ما أمّلوه من نشر الرحمةِ وتهيئةِ المرافق، أو التنبيهُ على أن أمثالَ هذه الآيةِ كثيرةٌ ولكن المنتفعَ بها من وفقه الله تعالى للاستبصار بها {وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً} أي : يخلق فيه الضلالَ لصرف اختيارِه إليه فَلَن تَجِدَ لَهُ أبداً وإن بالغتَ في التتبع والاستقصاء ناصراً يهديه إلى ما ذكر من الفلاح لاستحالة وجودِه في نفسه، لا لأنك لا تجده مع وجوده أو إمكانه.

{وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً} ومدارُ الحسبانِ انفتاحُ عيونهم على هيئة الناظرِ، {وَهُمْ رُقُودٌ} أي : نيام، {وَنُقَلِّبُهُمْ} في رقدتهم {ذَاتَ الْيَمِينِ} نصبٌ على الظرفية أي: جهةً تلي أيمانهم، {وَذَاتَ الشِّمَالِ} أي : جهةً تلي شمالَهم كيلا تأكلَ الأرضُ ما يليها من أبدانهم، {وَكَلْبُهُم} قال خالدُ بنُ مَعْدان : ليس في الجنة من الدواب إلا كلبُ أصحابِ الكهف وحمارُ بلعم، وقيل : لم يكن ذلك من جنس الكلاب بل كان {وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ} حكايةُ حالٍ ماضية ولذلك أُعمل اسمُ الفاعل

وعند الكسائي، وهشام، وأبي جعفر، من البصريين يجوز إعمالُه مطلقاً (يعمل اسم الفاعل **مطلقا** عند الكوفيين، ويعمل **بالشرط** عند البصريين) والذراعُ من المرفق إلى رأس الأُصبَعِ الوسطى{بِالْوَصِيدِ} أي: بموضع الباب من الكهف {لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ} أي : لو عاينتَهم وشاهدتَهم، وأصلُ الاطّلاع الإشرافُ على الشيء بالمعاينة والمشاهدة، {لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً} هرباً مما شاهدتَ منهم، وهو إما نصبٌ على المصدرية (مفعول مطلق) من معنى ما قبله إذ التوليةُ والفِرارُ من واد واحدٍ، وإما على الحالية بجعل المصدرِ بمعنى الفاعل أي : فارًّا، أو بجعل الفاعلِ مصدراً مبالغة، وإما على أنه مفعولٌ له (مفعول لأجله) {وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً} أي : خوفاً يملأ الصدرَ ويُرعِبه، وهو إما مفعولٌ ثانٍ، أو تمييز، ذلك لما ألبسهم الله ﷻ من الهيبة والهيئةِ كانت أعينُهم مفتّحةً كالمستيقظ الذي يريد أن يتكلم.

{وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ} كما أنمناهم وحفظنا أجسادَهم من البِلى والتحلّل آيةً دالةً على كمال قدرتنا بعثناهم من النوم {لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ} أي : ليسأل بعضُهم بعضاً فيترتب عليه ما فُصّل من الحِكَم البالغةِ، وجعلُه غايةً للبعث المعلّل فيما سبق بالاختبار من حيث إنه من أحكامه المترتبةِ عليه والاقتصارُ على ذكره لاستتباعه لسائر آثارِه {قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ} استئنافٌ لبيان تساؤلِهم، {كَمْ لَبِثْتُمْ} في منامكم، لعله قاله لِما رأى من مخالفة حالِهم لما هو المعتادُ في الجملة {قَالُوا} أي : بعضُهم {لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ} قيل : إنما قالوه لأنهم دخلوا الكهفَ غُدوةً وكان انتباهُهم آخرَ النهار، فقالوا : لبثنا يوماً، فلما رأَوا أن الشمسَ لم تغرُبْ بعْدُ، قالوا: أو بعضَ يوم، وكان ذلك بناءً على الظن الغالب فلم يُعْزوا إلى الكذب {قَالُوا} أي : بعضٌ آخرُ منهم بما سنح لهم من الأدلة أو بإلهام من الله سبحانه {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ} أي : أنتم لا تعلمون مدة لبثِكم وإنما يعلمها الله سبحانه، وهذا ردٌّ منهم على الأولين بأجملِ ما يكون من مراعاة حسنِ الأدب وبه يتحقق التحزبُ إلى الحزبين المعهودين فيما سبق، وقد قيل : القائلون جميعُهم ولكن في حالتين، ولا يساعده النظمُ الكريم فإن الاستئنافَ في الحكاية والخطابَ في المحكيّ يقضي بأن الكلامَ جارٍ على منهاج المحاورة والمجاوبة، وإلا لقيل : ثم قالوا : ربنا أعلمُ بما لبثنا.

{فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ} قالوه إعراضاً عن التعمق في البحث وإقبالاً على ما يُهمّهم بحسب الحالِ كما ينبئ عنه الفاءُ والورِقُ الفضةُ مضروبةً أو غيرَ مضروبة، ووصفُها باسم الإشارة يُشعر بأن القائلَ ناولها بعضَ أصحابه ليشتريَ بها قوتَ يومهم ذلك، وحملُهم

لها دليلٌ على أن التزودَ لا ينافي التوكلَ على الله {فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً} أي : أحلُّ وأطيبُ أو أكثرُ وأرخصُ {فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ} أي : من ذلك الأزكى طعاماً {وَلْيَتَلَطَّفْ} وليتكلّف اللُّطفَ في المعاملة كيلا يُغبَنَ أو في الاستخفاء لئلا يُعرَف {وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً} من أهل المدينةِ فإنه يستدعي شيوعَ أخبارِكم أي : لا يفعلنّ ما يؤدّي إلى ذلك، فالنهيُ على الأول تأسيسٌ وعلى الثاني تأكيدٌ للأمر بالتلطف، {إِنَّهُمْ} تعليلٌ لما سبق من الأمر والنهي أي : ليبالغْ في التلطف وعدمِ الإشعار لأنهم {إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ} أي : يطّلعوا عليكم أو يظفَروا بكم، والضميرُ للأهل المقدّر في أيُّها {يَرْجُمُوكُمْ} إن ثبتُّم على ما أنتم عليه، {أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ} أي : يصيّروكم إليها ويُدخلوكم فيها كُرهاً، من العَوْد بمعنى الصيْرورة، وإيثارُ كلمة (في) بدل (إلى) للدلالة على الاستقرار الذي هو أشدُّ شيءٍ عندهم كراهةً، وتقديمُ احتمال الإعادة لأن الظاهرَ من حالهم هو الثباتُ على الدين المؤدي إليه، وضميرُ الخطاب في المواضع الأربعة للمبالغة في حمل المبعوثِ على الاستخفاء وحثّ الباقين على الاهتمام بالتوصية، فإن إمحاضَ النُّصحِ أدخلُ في القَبول واهتمامُ الإنسان بشأن نفسه أكثرُ وأوفر {وَلَن تُفْلِحُوا إِذاً} أي : إن دخلتم فيها ولو بالكرْه والإلجاء لن تفوزوا بخير {أَبَداً} لا في الدنيا ولا الآخرة، وفيه من التشديد في التحذير ما لا يخفي.

(المقطع الرابع)

المشهد الثالث من قصة أصحاب الكهف

قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً{٢١} سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً{٢٢} وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً{٢٣} إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً{٢٤} وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً{٢٥} قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً{٢٦} وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً{٢٧}﴾.

{وَكَذَلِكَ} أي : وكما أَنمناهم وبعثناهم لما مرّ من ازديادهم في مراتب اليقينِ {أَعْثَرْنَا} أي : أطلعْنا الناسَ {أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ} أي : الذين أعثرناهم عليهم بما عاينوا من أحوالهم العجيبة {أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ} أي : أن كلَّ وعدِه أوكُلَّ موعودِه فيدخُل فيه وعدُه بالبعث أو مبعثُ الموعودِ دخولاً أولياً {حَقٌّ} صادقٌ لا خُلْف فيه أو ثابتٌ لا مردَّ له لأن نومَهم وانتباهَهم كحال من يموت ثم يُبعث {وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا} أي : القيامةَ التي هي عبارةٌ عن وقت بعثِ الخلائقِ جميعاً للحساب والجزاء، لا شك في قيامها فإن من شاهد أنه جل وعلا توفي نفوسَهم وأمسكها ثلاثُمائة سنة وأكثرَ حافظاً أبدانَها من التحلل والتفتّت ثم أرسلها إليها لا يبقى له شائبةُ شك في أن وعدَه تعالى حقٌّ وأنه يبعث مَنْ في القبور فيرد إليهم أرواحَهم فيحاسبهم ويجزيهم بحسب أعمالِهم {إِذْ يَتَنَازَعُونَ} ظرف لقوله : أعثرنا قُدّم عليه الغايةُ إظهاراً لكمال العنايةِ بذكرها، {بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ} ليرتفع الخلافُ ويتبينَ الحقُّ، قيل : المتنازعُ فيه أمرُ دينهم حيث كانوا مختلفين في البعث فمِن مُقِرّ له وجاحدٍ به وقائلٍ يقول ببعث الأرواحِ دون الأجساد وآخرَ يقول ببعثهما معاً، فالفاء في قوله ﷻ : {فَقَالُوا} فصيحة[١] أي : أعثرناهم عليهم فرَأَوا فماتوا فقالوا أي : قال بعضهم : {ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً} أي : على باب كهفِهم بنيانا لئلا يتطرقَ إليهم الناسُ ضنًّا بتربتهم ومحافظةً عليها وقوله تعالى : {رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ} من كلام المتنازِعين كأنهم لما رأَوا عدم اهتدائِهم إلى حقيقة حالِهم من حيث النسبُ ومن حيث اللُّبثُ في الكهف قالوا ذلك تفويضاً للأمر إلى علاّم الغيوب، أو من كلام الله تعالى ردًّا لقول الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازِعين {قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ} وهم الملكُ والمسلمون {لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً} وقوله تعالى : {فَقَالُوا} معطوفٌ على {يَتَنَازَعُونَ}، وإيثارُ صيغة الماضي للدلالة على أن هذا القولَ ليس مما يستمر ويتجدد كالتنازُع، {سَيَقُولُونَ} الضميرُ في الأفعال الثلاثة للخائضين في قصتهم في عهد النبيِّ ﷺ من أهل الكتابِ والمسلمين لكن لا على وجه إسنادِ كل منها إلى كلهم بل إلى بعضهم {ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ} أي : هم ثلاثةُ أشخاص رابعُهم أي : جاعلُهم أربعةً بانضمامه إليهم كلبُهم {وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ} رمياً بالخبر الخفيِّ الذي لا مُطَّلَعَ عليه أو ظنًّا بالغيب من قولهم : رجَمَ بالظن إذا ظن، وانتصابُه على الحالية من

[١] الفاء الفصيحة سميت فصيحة؛ لأنها تفصح عن محذوف.

الضمير في الفعلين جميعاً أي : راجعين أو على المصدرية منهما فإن الرجْمَ والقولَ واحد. {وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ} هو ما يقوله المسلمون بطريق التلقي من هذا الوحي وما فيه مما يرشدهم إلى ذلك من عدم نظمِه في سلك الرجْمِ بالغيب، وتغييرُ سبكه بزيادة الواو المفيدةِ لزيادة وكادةِ النسبة فيما بين طرفيها لا بوحي آخرَ كما قيل {قُل} تحقيقاً للحق وردًّا على الأولين {رَّبِّي أَعْلَمُ} أي : أقوى علماً {بِعِدَّتِهِم} بعددهم {مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ} أي: ما يعلم عِدّتهم إلاَّ قَلِيلٌ من الناس قد وفقهم الله تعالى للاستشهاد بتلك الشواهد، قال ابن عباس رضي الله عنهما : حين وقعت الواوُ انقطعت العِدّةُ وعليه مدارُ قوله ﷺ : أنا من ذلك القليل ولو كان في ذلك وحيٌ آخرُ لما خفيَ عليه ولما احتاج إلى الاستشهاد بالواو ولكان المسلمون أسوةً له في العلم بذلك.

{فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ} الفاءُ لتفريع النهي على ما قبله أي : إذ قد عرفتَ جهلَ أصحابِ القولين فلا تجادلهم في شأن الفتية {إِلَّا مِرَاء ظَاهِراً} قدرَ ما تعرّض له الوحيُ من وصفهم بالرجم بالغيب وعدمِ العلم على الوجه الإجمالي وتفويضِ العلم إلى الله سبحانه من غير تصريحٍ بجهلهم وتفضيحٍ لهم فإنه يُخِلُّ بمكارم الأخلاق.

{وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً} في شأنهم من الخائضين أَحَدًا فإن فيما قُص عليك لمندوحةً عن ذلك مع أنه لا علمَ لهم بذلك، {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ} أي : لأجل شيءٍ تعزم عليه {إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ} الشيءَ {غَداً} أي : فيما يُستقبل من الزمان مطلقاً فيدخُل فيه الغدُ دخولاً أولياً (فإنه نزل حين قالت اليهودُ لقريش : سلُوه عن الروح وعن أصحاب الكهفِ وذي القرنين، فسألوه عليه الصلاة والسلام فقال : "(ائتوني غداً أُخبرْكم) ولم يستثنِ فأبطأ عليه الوحيُ حتى شق عليه وكذّبته قريشٌ"، {إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّه} استثناءٌ مفرَّغ من النهي أي : لا تقولن ذلك في حال من الأحوال إلا حالَ ملابستِه بمشيئته تعالى على الوجه المعتادِ وهو أن يقال : إن شاء الله أو في وقت من الأوقات إلا وقتَ أن يشاء الله أن تقوله لا مطلقاً بل مشيئةً إذن، {وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ} بقولك : إن شاء الله متداركاً له إذا فرَطَ منك نسيانٌ ثم ذكرتَه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ولو بعد سنةٍ ما لم يحنَثْ، ولذلك جوّز تأخيرُ الاستثناءِ، وعامةُ الفقهاء على خلافه إذ لو صح ذلك لما تقرر إقرارٌ ولا طلاقٌ ولا عَتاقٌ ولم يُعلم صِدقٌ ولا كذبٌ، {وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي} أي : يوفقني {لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا} أي : لشيء أقربَ وأظهرَ من نبأ أصحابِ الكهفِ من الآيات والدلائلِ الدالةِ على نبوتي {رَشَداً} أي : إرشاداً للناس ودلالةً على ذلك، وقد فعل

ﷻ ذلك حيث آتاه من البينات ما هو أعظمُ من ذلك وأبينُ كقصص الأنبياءِ المتباعدِ أيامُهم والحوادثِ النازلة في الأعصار المستقبلةِ إلى قيام الساعةِ أو لأقربَ رشداً وأدنى خبراً من المنسيّ. {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ} أحياءً مضروباً على آذانهم {ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً} وهي جملةٌ مستأنَفةٌ مبيّنةٌ لما أُجمل فيما سلف وأُشير إلى عزة منالِه، وقيل : إنه حكايةُ كلامِ أهلِ الكتابِ فإنهم اختلفوا في مدة لُبثِهم كما اختلفوا في عِدّتهم فقال بعضهم هكذا وبعضُهم ثلاثمائة، وروي عن علي ﷺ أنه قال : عند أهلِ الكتابِ أنهم لبِثوا ثلاثَمائة سنةٍ شمسيةٍ والله تعالى ذكر السنةَ القمريةَ والتفاوتَ بينهما في كل مائة سنةٍ ثلاث سنين فيكون ثلاثَمائةٍ وتسعَ سنين، {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} أي : بالزمان الذي لبثوا فيه، {لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي : ما غاب فيهما وخفيَ من أحوال أهلِهما، واللامُ للاختصاص العلميّ[1] دون التكوينيّ[2] فإنه غيرُ مختص بالغيب {أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ} دلّ بصيغة التعجبِ على أن شأنَ علمِه سبحانه بالمبصَرات والمسموعاتِ خارجٌ عما عليه إدراكُ المدركين لا يحجُبه شيءٌ ولا يحول دونه حائلٌ ولا يتفاوت بالنسبة إليه اللطيفُ والكثيفُ والصغيرُ والكبيرُ والخفيُّ والجليُّ، والهاءُ ضميرُ الجلالة، ومحلُّه الرفعُ على الفاعلية والباء مَزيدةٌ عند سيبويه {مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ} لأهل السمواتِ والأرض مِن دُونِهِ تعالى مِن وَلِيّ يتولى أمورَهم وينصُرهم استقلالاً {وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً} في قضائه أو في علم الغيب أَحَدًا منهم ولا يُجعل له فيه مدخلاً وهو كما ترى أبلغُ في نفي الشريكِ من أن يقال : من ولي ولا شريكٍ، ولما دل انتظامُ القرآنِ الكريم لقصة أصحابِ الكهف من حيث إنهم بالنسبة إلى النبي ﷺ من المغيبات على أنه وحيٌ معجزٌ أمره عليه الصلاة والسلام بالمداومة على دراسته فقال : {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ} ولا تسمَعْ لقولهم : ائتِ بقرآن غيرِ هذا أو بدِّلْه {لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} لا قادرَ على تبديله وتغييره غيرُه {وَلَن تَجِدَ} أبدَ الدهر وإن بالغتَ في الطلب {مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً}ملجأً تعدل إليه عند إلمام مُلِمّة.

[1] لام الاختصاص العلمي : وهي المرادة هنا لأنه ذكر الغيب، والغيب يستوعب : (الواجب - الجائز - الممتنع)، والواجب مثل وجود الله تبارك وتعالى والجائز وجود الخلق والممتنع وجود الشريك "بدلالة التمانع".

[2] لام الاختصاص التكويني : وهو لا يستوعب إلا نوع واحد من الممكنات وهو (الجائز).

(المقطع الخامس)

تعقيبات على قصة أصحاب الكهف

قوله تعالى : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً{٢٨} وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً{٢٩} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً{٣٠} أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً{٣١}﴾.

{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} احبِسها وثبِّتها مصاحِبةً مَعَ الدائبين على الدعاء في جميع الأوقاتِ، والمرادُ بهم فقراءُ المؤمنين مثلُ صُهيبٍ وعمارٍ وخبابٍ ونحوِهم ﷺ، وقد قال قومُ نوحٍ عليه السلام : {قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ}الشعراء١١١، والتعبيرُ عنهم بالموصول لتعليل الأمر بما في حيز الصلة من الخَصلة الداعيةِ إلى إدامة الصحبة. {يُرِيدُونَ} بدعائهم ذلك الصحبة {وَجْهَهُ} حالٌ من المستكنِّ في يدْعون أي : مريدين لرضاه تعالى وطاعته، {وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ} أي : لا يجاوِزْهم نظرُك إلى غيرهم، مِن عدَاه أي: جاوزه، واستعمالُه بعن لتضمينه معنى النبوِّ أو لا تصرِفْ عيناك النظرَ عنهم إلى غيرهم، من عدَوتُه عن الأمر أي : صرفتُه عنه على أن المفعولَ محذوفٌ لظهوره، والمرادُ نهيُه عليه السلام عن الازدراء بهم لرثاثة زِيِّهم طموحاً إلى زِيّ الأغنياء {تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} أي : تطلب مجالسةَ الأشراف والأغنياءِ وأصحابِ الدنيا، وهي حالٌ من الكاف على الوجه الأولِ، {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا} في تنحية الفقراءِ عن مجالسك مَنْ جعلناه غافلاً لبطلان استعدادِه للذكر بالمرة عَن ذِكْرِنَا كأولئك الذين يدعونك إلى طرد الفقراءِ عن مجلسك فإنهم غافلون عن ذكرنا على خلاف ما عليه المؤمنون من الدعاء في مجامع الأوقاتِ، وفيه تنبيهٌ على أن الباعثَ له على ذلك الدعاءِ غفلةُ قلبه عن جناب الله سبحانه وجهته وانهماكُه في الحسيات حتى خفيَ عليه أن الشرفَ بحِلْية النفس لا بزينة الجسد، {وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً} ضيَاعاً

وهلاكاً أو متقدماً للحق والصواب نابذاً له وراءَ ظهره، من قولهم : فرسٌ فرُطٌ أي : متقدِّمٌ للخيل أو هو بمعنى الإفراط والتفريطِ فإن الغفلةَ عن ذكره سبحانه تؤدّي إلى اتباع الهوى المؤدِّي إلى التجاوز والتباعُدِ عن الحق والصواب، والتعبيرُ عنهم بالموصول للإيذان بعلية ما في حيز الصلة للنهي عن الإطاعة.

{وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ} لأولئك الغافلين المتبعين هواهم ما أوحيَ إليَّ الحقُّ لا غيرُ كائناً من ربكم، أو الحقُّ المعهودُ من جهة ربكم لا من جهتي حتى يُتصور فيه التبديلُ أو يُمكنَ التردُدُ في اتباعه وقوله تعالى : {فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ} إما من تمام القولِ المأمورِ به والفاءُ لترتيب ما بعدها على ما قبلها بطريق التهديد لا لتفريعه عليه كما في قوله تعالى : {هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}ص٣٩ ،وفيه من التهديد وإظهارِ الاستغناءِ عن متابعتهم وعدمِ المبالاةِ بهم وبإيمانهم وجوداً وعدماً ما لا يخفى، وإما تهديدٌ من جهة الله تعالى والفاء لترتيب ما بعدها من التهديد على الأمر لا على مضمون المأمورِ به، والمعنى قل لهم ذلك، وبعد ذلك من شاء أن يؤمن به أو أن يصدِّقَك فيه فليؤمن ومن شاء أن يكفُر به أو يكذِّبَك فيه فليفعل، فقوله تعالى : {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ} وعيدٌ شديدٌ وتأكيدٌ للتهديد وتعليلٌ لما يفيده من الزجر عن الكفر أو لما يُفْهم من ظاهر التخييرِ من عدم المبالاةِ بكفرهم وقلةِ الاهتمامِ بزجرهم عنه، فإن إعدادَ جزائِه من دواعي الإملاءِ والإمهالِ، وعلى الوجه الأول هو تعليلٌ للأمر بما ذكر من التخيير التهديديِّ أي : قل لهم ذلك إنا أعتدنا {لِلظَّالِمِينَ} أي : هيأنا للكافرين بالحق بعد ما جاء من الله سبحانه، والتعبيرُ عنهم بالظالمين للتنبيه على أن مشيئةَ الكفر واختيارَه تجاوزٌ عن الحد ووضعٌ للشيء في غير موضعه {نَاراً} عظيمةً عجيبة {أَحَاطَ بِهِمْ} أي : يحيط بهم، وإيثارُ صيغةِ الماضي للدِلالة على التحقق {وَإِن يَسْتَغِيثُوا} من العطش {يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ} كالحديد المذاب، {يَشْوِي الْوُجُوهَ} إذا قدم ليُشرَب انشوى الوجهُ لحرارته، {بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً} ذلك وَسَاءتْ النار متكأً، وأصل الارتفاقِ نصبُ المِرْفقِ تحت الخد وأنى ذلك في النار!، وإنما هو بمقابلة قوله تعالى: {نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً}، {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا} في محل التعليلِ للحث على الإيمان المنفهِم من التخيير، كأنه قيل : وللذين آمنوا، ولعل تغييرَ سبكه للإيذان بكمال تنافي مآليْ الفريقين أي : إن الذين آمنوا بالحق الذي أوحيَ إليك {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} حسبما بين في تضاعيفه {إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً} خبرُ إن الأولى هي الثانيةُ مع ما في حيزها والراجعُ محذوفٌ أي : من أحسنَ منهم عملاً، {أُوْلَئِكَ} المنعوتون

بالنعوت الجليلة {لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ} استئنافٌ لبيان الأجر، أو هو الخبرُ وما بينهما اعتراضٌ أو هو خبرٌ بعد خبر {يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ} من الأولى ابتدائيةٌ والثانيةُ صفةٌ لأساور والتنكيرُ للتفخيم وهو جمعُ أَسورة أو إسْوار جمع سوار {وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً} خُصت الخُضرة بثيابهم لأنها أحسنُ الألوان وأكثرُها طراوة {مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ} أي : مما رقّ من الديباج وغلُظ، جمعَ بين النوعين للدلالة على أن فيها ما تشتهي الأنفسُ وتلَذّ الأعين {مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ} على السرُر على ما هو شأن المتنعمين {نِعْمَ الثَّوَابُ} ذلك {وَحَسُنَتْ} أي : الأرائك {مُرْتَفَقاً} أي : متكأ.

(المقطع السادس)

المشهد الأول من قصة أصحاب الجنتين

قوله تعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً{٣٢} كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً{٣٣} وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً{٣٤}﴾.

{وَاضْرِبْ لَهُم} أي : للفريقين الكافر والمؤمن {مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ} مفعولان لـ(اضربْ) أولُهما ثانيهما[1] لأنه المحتاجُ إلى التفصيل والبيان أي : اضرب للكافرين والمؤمنين لا من حيث أحوالُهما المستفادةُ مما ذكر آنفاً من أن للأولين في الآخرة كذا بل من حيث عصيانُ الأولين مع تقلبهم في نعم الله تعالى وطاعةِ الآخرين مع مكابدتهم مشاقَّ الفقر مثلاً حالَ رجلين مقدرَين أو محققَين[2] هما أخوان من بني إسرائيلَ أو شريكان : كافرٌ ومؤمنٌ اقتسما ثمانيةَ آلافِ دينار فاشترى الكافرُ بنصيبه ضِياعاً وعَقاراً وصرف المؤمن نصيبه إلى وجوه المبارِّ فآل أمرُهما إلى ما حكاه الله تعالى، {جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا} وهو الكافر {جَنَّتَيْنِ} بساتين {مِنْ أَعْنَابٍ} من كروم متنوعة والجملة بتمامها بيانٌ للتمثيل أو صفةٌ لرجلين {وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ} أي : جعلنا النخل محيطةً بهما مؤزَّراً بها كرومُهما، {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا} وسطهما {زَرْعاً} ليكون كلٌّ منهما جامعاً للأقوات والفواكهِ متواصلَ العِمارة على الهيئة الرائقةِ والوضعِ الأنيق، {كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا} ثمرَها

[1] (رجلين) : مفعول به أول ، (مثلاً) : مفعول به ثانٍ.

[2] محققين : أي : أن القصة حصلت حقيقةً، و مقدرين : أي : أنهما جريا مجريا الحكاية والتقدير.

وبلغت مبلغاً صالحاً للأكل، {وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ} لم تنقُص من أُكُلها {شَيْئاً} كما يعهد ذلك في سائر البساتينِ فإن الثمارَ غالباً تكثُر في عام وتقلُّ في آخر، وكذا بعضُ الأشجارِ يأتي بالثمر في بعض الأعوامِ دون بعض {وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا} فيما بين كلَ من الجنتين {نَهَراً} على حِدَة ليدوم شربُهما ويزيد بهاؤهما، ولعل تأخير ذكر تفجيرِ النهر عن ذكر إيتاءِ الأكلِ مع أن الترتيب الخارجيَّ على العكس للإيذان باستقلال كلَ من إيتاء الأكل وتفجيرِ النهر في تكميل محاسنِ الجنتين كما في قوله تعالى : {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ}البقرة٢٦٦ ونحوها، ولو عُكس لانفهم أن المجموعَ خَصلةٌ واحدة بعضُها مترتبٌ على بعض فإن إيتاءَ الأكلِ متفرّعٌ على السقْي عادةً، وفيه إيماءٌ إلى أن إيتاء الأكلِ لا يتوقف على السقي كقوله تعالى : {يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}النور٣٥ {وَكَانَ لَهُ} لصاحب الجنتين {ثَمَرٌ} أنواعٌ من المال غيرُ الجنتين، من ثمر مالَه إذا كثّره، قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو جميعُ المال من الذهب والفضة والحيوانِ وغير ذلك، {فَقَالَ لِصَاحِبِهِ} المؤمن {وَهُوَ} أي : القائلُ {يُحَاوِرُهُ} أي : صاحبَه المؤمنَ وإن جاز العكسُ أي : يراجعه في الكلام من حار إذا رجع {أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً} حشَماً وأعواناً أو أولاداً ذُكوراً لأنهم الذين ينفِرون معه.

(المقطع السابع)

المشهد الثاني من قصة أصحاب الجنتين والتعقيب عليها

قوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً{٣٥} وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً{٣٦} قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً{٣٧} لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً{٣٨} وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً{٣٩} فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً{٤٠} أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً {٤١} وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ

كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً{٤٢} وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً{٤٣} هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً{٤٤} وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً{٤٥}﴾.

{وَدَخَلَ جَنَّتَهُ} التي شُرحت أحوالُها وعَدَدُها وصفاتُها وهيآتُها، وتوحيدها إما لعدم تعلق الغرَضِ بتعددها، وإما لاتصال إحداهما بالأخرى، وإما لأن الدخولَ يكون في واحدة فواحدة {وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ} ضارٌّ لها بعُجبه وكفره {قَالَ} استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من ذكر دخولِ جنته حالَ ظلمِه لنفسه، كأنه قيل : فماذا قال إذ ذاك؟ فقيل قال : {قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ} الجنةُ أي : تفنى {أَبَداً} لطول أملِه وتمادي غفلتِه واغترارِه بمُهلته، ولعله إنما قاله بمقابلة موعظةِ صاحبِه وتذكيرِه بفناء جنّتيه ونهيِه عن الاغترار بهما وأمره بتحصيل الباقيات الصالحات، {وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً} كائنةً فيما سيأتي {وَلَئِن رُّدِدتُّ} بالبعث عند قيامها كما تقول {إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ} يومئذ {خَيْراً مِّنْهَا} أي : من هذه الجنةِ، {مُنقَلَباً} مرجعاً وعاقبةً، ومدارُ هذا الطمعِ واليمينِ الفاجرةِ[1] اعتقادٌ أنه تعالى إنما أولاه ما أولاه في الدنيا لاستحقاقه الذاتي وكرامته عليه سبحانه ولم يدرِ أن ذلك استدراجٌ، {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ} استئناف كما سيق {وَهُوَ يُحَاوِرُهُ} جملةٌ حاليةٌ كما مر فائدتُها التنبيهُ من أول الأمرِ على أن ما يتلوه كلامٌ معتنًى بشأنه مسوقٌ للمحاورة {أَكَفَرْتَ} حيث قلت: ما أظن الساعةَ قائمةً {بِالَّذِي خَلَقَكَ} أي : في ضمن خلقِ أصلِك {مِن تُرَابٍ} فإن خلْقَ آدمَ عليه السلام منه متضمّنٌ لخلقه منه لِما أن خلقَ كل فردٍ من أفراد البشر له حظٌّ من خلقه عليه السلام إذ لم تكن فطرتُه الشريفةُ مقصورةً على نفسه، بل كانت أُنموذجاً منطوياً على فطرة سائرِ أفرادِ الجنسِ انطواءً إجمالياً مستتبِعاً لجريان آثارِها على الكل، فكان خلْقُه عليه السلام من التراب خَلْقاً للكل منه، وقيل : خلقَك منه لأنه أصلُ مادتِك إذ به يحصُل الغذاءُ الذي منه تحصل النطفةُ فتدبر {ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ} هي مادتُك القريبة فالمخلوقُ واحدٌ والمبدأُ متعددٌ {ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً} أي: عَدلك وكمّلك إنساناً ذكراً أو صيّرك رجلاً والتعبيرُ عنه تعالى بالموصول للإشعار بعلية ما حيز الصلة لإنكار الكفرِ والتلويحِ بدليل البعثِ الذي نطق به قولُه عز وجل : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى

[1] اللام في (ولئن رددت) هي لام قسم.

أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}الحج٥.، {لَّكِنَّا} أصله لكنْ أنا، و {هُوَ} ضميرُ الشأن وهو مبتدأٌ خبرُه {اللَّهُ رَبِّي} وتلك الجملةُ خبرُ أنا والعائدُ منها إليه الضميرُ، ومدارُ الاستدراك قوله تعالى : {أَكَفَرْتَ} كأنه قال : أنت كافرٌ لكني مؤمنٌ موحّد {وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً} فيه إيذانٌ بأن كفرَه كان بطريق الإشراك، {وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ} أي : هلاّ قلت عندما دخلتَها، وتقديمُ الظرف على المحضَّض عليه للإيذان بتحتّم القول في آن الدخول من غير ريث لا للقصر {مَا شَاء اللَّهُ} أي: الأمرُ ما شاء الله والمرادُ تحضيضُه على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله تعالى إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها {لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ} أي : هلا قلت ذلك اعترافاً بعجزك وبأن ما تيسر لك من عِمارتها وتدبيرِ أمرِها إنما هو بمعونته تعالى وإقداره عن النبي ﷺ : (من رأى شيئاً فأعجبه فقال : ما شاء الله لا قوةَ إلا بالله لم يضُرَّه) {إِن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً} والجملةُ مفعولٌ ثانٍ للرؤية أو حالٌ وفي قوله تعالى: {وَوَلَداً} نُصرةٌ لمن فسر النفرَ بالولد، {فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ} هو جوابُ الشرط والمعنى إن ترنِ أفقرَ منك فأنا أتوقع من صنع الله سبحانه أن يقلِبَ ما بي وما بك من الفقر والغنى فيرزُقني لإيماني جنةً خيراً من جنتك ويسلُبَك لكفرك نعمتَه ويُخْرِب جنتك {وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً} هو مصدرٌ بمعنى الحساب كالبُطلان والغفران أي : مقداراً قدره تعالى وحسَبه، وهو الحكمُ بتخريبها، {مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً} مصدر أريد به المفعولُ مبالغةً أي : أرضاً ملساء يُزْلَق عليها لاستئصال ما عليها من البناء والشجر والنبات، {أَوْ يُصْبِحَ} عطف على قوله تعالى : {فَتُصْبِحَ}، وعلى الوجه الثالث على يرسلَ {مَاؤُهَا غَوْراً} أي : غائراً في الأرض أُطلق عليه المصدرُ مبالغة {فَلَن تَسْتَطِيعَ} أبداً {لَهُ} أي : للماء الغائرِ {طَلَباً} فضلاً عن وجدانه وردّه، {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ} أُهلك أموالُه المعهودةُ من جنتيه وما فيهما، وأصلُه من إحاطة العدوّ، وهو عطفٌ على مقدر، كأنه قيل : فوقع بعضُ ما توقع من المحذور وأُهلك أمواله، وإنما حُذف لدِلالة السباقِ والسياقِ عليه كما في المعطوف عليه بالفاء الفصيحة {فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ} ظهراً لبطن وهو كنايةٌ عن الندم، كأنه قيل : فأصبح يندم {عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا} أي : في عِمارتها من المال، ولعل تخصيصَ الندم به دون ما هلك الآن من الجنة لما أنه إنما يكون على الأفعال الاختياريةِ، ولأن ما أنفق في عِمارتها كان مما يمكن صيانتُه عن طوارق الحدَثانِ وقد صرفه إلى مصالحها رجاءَ أن يتمتعَ به، وكان

يرى أنه لا تنالها أيدي الردَى، ولذلك قال : {مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً} فلما ظهر له أنها مما يعتريه الهلاكُ ندم على ما صنع بناءً على الزعم الفاسدِ من إنفاق ما يمكن ادخارُه في مثل هذا الشيءِ السريع الزوال، {وَهِيَ} أي : الجنةُ من الأعناب المحفوفةِ بنخل {خَاوِيَةٌ} ساقطةٌ {عَلَى عُرُوشِهَا} أي : دعائمها المصنوعةِ للكروم لسقوطها قبل سقوطِها، وتخصيصُ حالها بالذكر دون النخل والزرعِ إما لأنها العُمدةُ وهما من متمماتها، وإما لأن ذكرَ هلاكِها مغنٍ عن ذكر هلاك الباقي لأنها حيث هلكت وهي مُشيَّدةٌ بعروشها فهلاكُ ما عداها بالطريق الأولى، وإما لأن الإنفاقَ في عمارتها أكثرُ {وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً} عطف على {يُقَلِّبُ} أو حالٌ من ضميره أي : وهو يقول : {وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً} كأنه تذكر موعظةَ أخيه وعلم أنه إنما أُتيَ من قِبل شِرْكِه فتمنى لو لم يكن مشركاً فلم يُصبْه ما أصابه، قيل : ويحتمل أن يكون ذلك توبةً من الشرك وندَماً على ما فرَط منه، {وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ} يقدِرون على نصره بدفع الإهلاكِ أو على رد المهلِك أو الإتيانِ بمثله، {مِن دُونِ اللَّهِ} فإنه القادرُ على ذلك وحده {وَمَا كَانَ مُنتَصِراً}في نفسه ممتنعاً بقوته عن انتقامه سبحانه،{هُنَالِكَ} في ذلك المقامِ وفي تلك الحال {الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ} أي : النُصرة له وحده لا يقدِر عليها أحدٌ فهو تقريرٌ لما قبله، أو ينصُر فيها أولياءَه من المؤمنين على الكفرة كما نصر بما فعل بالكافر أخاه المؤمنَ، ويعضُده قوله تعالى : {هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً} أي : لأوليائه، وقرئ الوِلاية بكسر الواو ومعناها الملكُ والسلطانُ له ﷻ لا يُغلَب ولا يُمتَنع منه أو لا يُعبد غيرُه كان عن اضطرار وجزَعٍ عمّا دهاه، {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} أي : واذكر لهم ما يُشبهها في زَهْرتها ونَضارتها وسرعةِ زوالها لئلا يطمئنوا بها ولا يعكُفوا عليها ولا يَضرِبوا عن الآخرة صفحاً بالمرة، أو بيِّنْ لهم صفتَها العجيبة التي هي في الغرابة كالمثَل، {كَمَاء} استئنافٌ لبيان المثَل أي : هي كماء {أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ} ويجوز كونُه مفعولاً ثانياً لاضْربْ على أنه بمعنى صيّر {فَاخْتَلَطَ بِهِ} اشتبك بسببه {نَبَاتُ الْأَرْضِ} فالتفّ وخالط بعضه بعضاً من كثرته وتكاثفه، أو نجَع الماءُ في النبات حتى روِيَ ورفّ، فمقتضى الظاهرِ حينئذ فاختلط بنبات الأرض، وإيثارُ ما عليه النظمُ الكريمُ عليه للمبالغة في الكثرة فإن كلاً من المختلطَين موصوفٌ بصفة صاحبِه {فَأَصْبَحَ} ذلك النباتُ الملتفُّ إثرَ بهجتها ورفيفِها {هَشِيماً} مهشوماً مكسوراً {تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ} تفرّقه، يكون أخضرَ وارفاً ثم هشيماً تطيّره الرياحُ كأن لم يغْنَ بالأمس، {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ} من الأشياء التي من جملتها الإنشاءُ والإفناءُ {مُّقْتَدِراً} قادراً على الكمال.

(المقطع الثامن)

بعض مشاهد البداية والنهاية

قوله تعالى : ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً{٤٦} وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً{٤٧} وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً{٤٨} وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً{٤٩} وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً{٥٠} مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً{٥١} وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً{٥٢} وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً{٥٣}﴾.

{الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} بيانٌ لشأن ما كانوا يفتخرون به من محسّنات الحياة الدنيا، كما حكى الله مقال الصاحب الكافر : {أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً} إثرَ بيانِ شأن الحياة الدنيا نفسها بما مر من المثَل، **وتقديمُ المال على البنين مع كونهم أعزَّ منه** كما في الآية المحكية آنفاً وقولِه تعالى : {وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً} وغيرِ ذلك من الآيات الكريمة **لعراقته فيما نيط به من الزينة والإمداد** وغيرِ ذلك وعمومه بالنسبة إلى الأفراد والأوقات، فإنه زينةٌ ومُمِدٌّ لكل أحد من الآباء والبنين في كل وقت وحين، **وأما البنون فزينتُهم وإمدادُهم إنما يكون بالنسبة إلى من بلغ مبلغَ الأبوّة، ولأن المالَ مناطٌ لبقاء النفس** والبنين لبقاء النوع، **ولأن الحاجةَ إليه أمسُّ** من الحاجة إليهم، ولأنه **أقدم منهم في** الوجود، ولأنه **زينةٌ بدونهم** من غير عكس فإن من له بنونَ بلا مال فهو في ضيقِ حالٍ ونكال، وإفرادُ الزينة مع أنها مسنَدةٌ إلى الإثنين لما أنها مصدرٌ في الأصل أطلق على المفعول مبالغةً

كأنهما نفسُ الزينة، والمعنى أن ما يفتخرون به من المال والبنين شيءٌ يُتزيّن به في الحياة الدنيا وقد عُلم شأنُها في سرعة الزوالِ وقُربِ الاضمحلال فكيف بما هو من أوصافها التي شأنُها أن تزول قبل زوالِها. {وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ} هي أعمالُ الخير مطلقا، وعلى كل تقدير يدخُل فيها أعمالُ فقراءِ المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهَه دخولاً أولياً، أما صلاحُها فظاهرٌ وأما بقاءُ عوائدِها عند فناءِ كلِّ ما تطمح إليه النفسُ من حظوظ الدنيا{خَيْرٌ} أي : مما نُعت شأنُه من المال والبنين، وإخراجُ بقاءِ تلك الأعمالِ وصلاحِها مُخرَجَ الصفات المفروغِ عنها مع أن حقَّهما أن يكونا مقصودَي الإفادةِ لا سيما في مقابلة إثباتِ الفناء لما يقابلها من المال والبنين على طريقة قوله تعالى : {مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ} للإيذان بأن بقاءَها أمرٌ محقّقٌ لا حاجة إلى بيانه بل لفظُ الباقياتِ اسمٌ لها وصفٌ، ولذلك لم يُذكر الموصوفُ وإنما الذي يُحتاج إلى التعرض له خيريتُها {عِندَ رَبِّكَ} أي : في الآخرة وهو بيانٌ لما يظهر فيه آثارُ خيريّتها بمنزلة إضافة الزينةِ إلى الحياة الدنيا لا لأفضليتها فيها من المال والبنين مع مشاركة الكلِّ في الأصل إذ لا مشاركةَ لهما في الخيرية في الآخرة {ثَوَاباً} عائدةً تعود إلى صاحبها {وَخَيْرٌ أَمَلاً } حيث ينال بها صاحبُها في الآخرة كلَّ ما كان يؤمله في الدنيا، وأما ما مر من المال والبنين فليس لصاحبه أملٌ يناله، وتكريرُ خيرٌ للإشعار باختلاف حيثيَّتي الخيرية والمبالغةِ فيها، {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ} منصوبٌ بمضمر أي : اذكرْ حين نقلَعُها من أماكنها ونسيّرها في الجو على هيئاتها كما ينبئ عنه قوله تعالى : {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ }النمل٨٨، أو نسير أجزاءَها بعد أن نجعلها هباءً مُنْبَثّاً، والمرادُ بتذكيره تحذيرُ المشركين مما فيه من الدواهي، وقرئ تُسيَّر على صيغة البناء للمفعول من التفعيل جرياً على سنن الكبرياءِ وإيذاناً بالاستغناء عن الإسناد إلى الفاعل لتعيُّنه، {وَتَرَى الْأَرْضَ} أي : جميعَ جوانبها والخطابُ لرسول الله ﷺ أو لكل أحدٍ ممن يتأتّى منه الرؤيةُ، {بَارِزَةً} إما بروزُ ما تحت الجبال فظاهرٌ، وأما ما عداه فكانت الجبالُ تحول بينه وبين الناظرِ قبل ذلك، فالآن أضحى قاعاً صفْصِفاً لا ترى فيها عِوَجاً ولا أمْتاً {وَحَشَرْنَاهُمْ} جمعناهم إلى الموقف من كل أَوْب، وإيثارُ صيغة الماضي بعد (نسيّر) و (تَرى) للدلالة على تحقق الحشْرِ المتفرّع على البعث الذي يُنكره المنكرون، وعليه يدورُ أمرُ الجزاءِ وكذا الكلام فيما عطف عليه منفياً وموجَباً، {فَلَمْ نُغَادِرْ} أي : لم نترُك {مِنْهُمْ أَحَداً} يقال : غادره إذا تركه ومنه الغدْرُ الذي هو تركُ الوفاءِ والغديرُ الذي هو ماءٌ يتركه السيلُ في الأرض الغائرة،

{وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ} شُبّهت حالُهم بحال جندٍ عُرضوا على السلطان ليأمُر فيهم بما يأمُر، وفي الالتفات إلى الغَيبة وبناءِ الفعل للمفعول مع التعرض لعنوان الربوبية والإضافة إلى ضميره عليه السلام من تربية المهابة والجَرْي على سَنن الكبرياءِ وإظهار اللطف به عليه السلام ما لا يخفى، {صَفّاً} أي : غيرَ متفرّقين ولا مختلِطين فلا تعرّض فيه لوَحدة الصفِّ وتعدّدِه، {لَّقَدْ جِئْتُمُونَا} أي : مقولاً لهم أو وقلنا لهم، {كَمَا خَلَقْنَاكُمْ} نعتٌ لمصدر مقدّرٍ أي : مجيئاً كائناً كمجيئكم عند خلْقِنا لكم {أَوَّلَ مَرَّةٍ} أو حال من ضمير جئتمونا أي : كائنين كما خلقناكم أولَ مرة حُفاةً عُراة غُرْلاً أو ما معكم شيءٌ مما تفتخرون به من الأموال والأنصار كقوله تعالى : {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ }الأنعام٩٤ {بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً} إضرابٌ وانتقالٌ من كلام إلى كلام كلاهما للتوبيخ والتقريعِ، أي : زعمتم في الدنيا أنه لن نجعلَ لكم أبداً وقتاً نُنْجز فيه ما وعدناه من البعث وما يتبعه، والظرفُ إما مفعولٌ ثانٍ للجعل وهو بمعنى التصييرِ والأولُ هو موعداً، أو حال من موعداً وهو بمعنى الخلق والإبداعِ، {وَوُضِعَ الْكِتَابُ} عطف على عُرضوا داخلٌ تحت الأمورِ الهائلة التي أريد تذكيرُها بتذكير وقتِها أُورد فيه ما أورد في أمثاله من صيغة الماضي دَلالةً على التقرر أيضاً، أي : وُضع صحائفُ الأعمالِ، وإيثارُ الإفرادِ للاكتفاء بالجنس، والمرادُ بوضعها إما وضعُها في أيدي أصحابِها يميناً وشمالاً وإما في الميزان {فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ} قاطبةً فيدخل فيهم الكفرةُ المنكِرون للبعث دخولاً أولياً {مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ} خائفين مِمَّا فِيهِ من الجرائم والذنوب {وَيَقُولُونَ} عند وقوفِهم على ما في تضاعيفه نقيراً وقِطْميراً {يَا وَيْلَتَنَا}منادين لهلَكتهم التي هلكوها من بين الهلَكات مستدْعين لها ليهلِكوا ولا يرَوا هولَ ما لاقَوه، أي : يا ويلتَنا احضُري فهذا أوانُ حضورِك {مَالِ هَذَا الْكِتَابِ} أي : أيُ شيء له، وقولُه تعالى : {صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} أي : حواها وضبطَها، جملةٌ حاليةٌ محقِّقةٌ لما في الجملة الاستفهاميةِ من التعجب، أو استئنافيةٌ مبنيةٌ على سؤال نشأ من التعجب، كأنه قيل : ما شأنُه حتى يُتعجَّب منه؟ فقيل : {لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا} في الدنيا من السيئات، أو جزاءَ ما عملوا {حَاضِراً} مسطوراً عتيداً {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً} فيكتب ما لم يُعمَل من السيئات أو يزيد في عقابه المستحَقِ فيكون إظهاراً لِمَعْدلة القلمِ الأزلي، {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ} أي : اذكر وقتَ قولنا لهم : {اسْجُدُوا لِآدَمَ} سجودَ تحيةٍ وتكريم {فَسَجَدُوا} جميعاً امتثالاً بالأمر {إِلَّا إِبْلِيسَ} فإنه لم

يسجُد بل أبى واستكبر وقوله تعالى : {كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} كلامٌ مستأنفٌ سيق مساقَ التعليلِ لما يفيده استثناءُ اللعين من الساجدين، كأنه قيل : ما له لم يسجُد؟ فقيل : كان أصلُه جنيًّا فَفَسَقَ أي : خرج عن طاعته كما ينبئ عنه الفاءُ، أو صار فاسقاً كافراً بسبب أمرِ الله تعالى إذ لولاه لما أبى، والتعرضُ لوصف الربوبية المنافية للفسق لبيان كمالِ قبحِ ما فعله، والمرادُ بتذكير قصّته تشديدُ النكيرِ على المتكبرين المفتخرين بأنسابهم وأموالهم المستنكفين عن الانتظام في سلك فقراء المؤمنين ببيان أن ذلك من صنيع إبليسَ وأنهم في ذلك تابعون لتسويله كما ينبئ عنه قوله تعالى : {أَفَتَتَّخِذُونَهُ}، فإن الهمزةَ للإنكار والتعجبِ والفاءَ للتعقيب أي : أعَقيبَ علمِكم بصدور تلك القبائحِ عنه تتخذونه {وَذُرِّيَّتَهُ} أي : أولادَه وأتباعَه، جعلوا ذريتَه مجازاً، {أَوْلِيَاء مِن دُونِي} فتستبدلونهم بي فتطيعونهم بدَل طاعتي {وَهُمْ} أي : والحال أن إبليسَ وذريته {لَكُمْ عَدُوٌّ} أي : أعداءٌ وتقييد الاتخاذ بالجملة الحالية لتأكيد الإنكارِ وتشديده، فإن مضمونَها مانعٌ من وقوع الاتخاذِ ومنافٍ له قطعاً {بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ} أي : الواضعين للشيء في غير موضعِه {بَدَلاً} من الله سبحانه، إبليسُ وذريتُه، وفي الالتفات إلى الغَيبة مع وضع الظالمين موضعَ الضمير من الإيذان بكمال السُخط والإشارة إلى أن ما فعلوه ظلمٌ قبيح ما لا يخفى.

{مَا أَشْهَدتُّهُمْ} استئنافٌ مَسوق لبيان عدمِ استحقاقِهم للاتخاذ المذكورِ في أنفسهم بعد بيانِ الصوارف عن ذلك من خباثة المَحتد والفسق والعداوة، أي : ما أحضَرْتُ إبليسَ وذريتَه {خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ} حيث خلقتُهما قبل خلقِهم، ولا أشهدتُ بعضَهم خلقَ بعض كقوله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً}النساء٢٩، هذا ما أجمع عليه الجمهورُ حذاراً من تفكيك الضميرين ومحافظةً على ظاهر لفظ الأنفس، ولك أن تُرجع الضميرَ الثانيَ إلى الظالمين وتلتزمَ التفكيكَ بناءً على قَوْد المعنى إليه، فإن نفيَ إشهادِ الشياطين خلقَ الذين يتولَّونهم هو الذي يدور عليه إنكارُ اتخاذهم أولياءَ بناء على أن أدنى ما يصحح التوليَ حضورُ الوليِّ خلقَ المتولى، وحيث لا حضورَ لا مصحِّحَ للتولي قطعاً، {وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ} أي : متّخذَهم، وإنما وُضع موضعَه المظهُر ذماً لهم وتسجيلاً عليهم بالإضلال وتأكيداً لما سبق من إنكار اتخاذهم أولياءَ {عَضُداً} أعواناً في شأن الخلقِ أو في شأن من شؤوني حتى يُتوهّم شركتُهم في التولي بناء على الشركة في بعض أحكامِ الربوبية، وفيه تهكمٌ

بهم وإيذانٌ بكمال ركاكة عقولهم وسخافة آرائهم حيث لا يفهمون هذا الأمرَ الجليَّ الذي لا يكاد يشتبه على البُلْه والصبيان فيحتاجون إلى التصريح به، وإيثارُ نفي الإشهاد على نفي شهودهم ونفي اتخاذهم أعواناً على نفي كونهم كذلك للإشعار بأنهم مقهورون تحت قدرته تعالى تابعون لمشيئته وإرادته فيهم، وأنهم بمعزل من استحقاق الشهود والمعونة من تلقاء أنفسهم من غير إحضارٍ واتخاذ وإنما قُصارى ما يتوهم في شأنهم أن يبلُغوا ذلك المبلغَ بأمر الله ﷻ ولم يكد ذلك يكون، {وَيَوْمَ يَقُولُ} أي : الله ﷻ للكافرين توبيخاً وتعجيزاً، {نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ} أنهم شفعاؤُكم ليشفعوا لكم، والمرادُ بهم كلُّ ما عُبد من دونه تعالى، {فَدَعَوْهُمْ} أي : نادَوهم للإغاثة، وفيه بيانٌ لكمال اعتنائِهم بإعانتهم على طريقة الشفاعةِ إذ معلومٌ أن لا طريقَ إلى المدافعة {فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ} فلم يُغيثوهم إذ لا إمكان لذلك وفي إيراده مع ظهوره تهكمٌ بهم وإيذانٌ بأنهم في الحماقة بحيث لا يفهمونه إلا بالتصريح به {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم} بين الداعين والمدعوّين {مَّوْبِقاً} اسمُ مكانٍ أو مصدرٌ من وبَق وُبوقا إذا هلَك أي : مهلِكاً يشتركون فيه وهو النارُ، أو عداوةً وهي في الشدة نفسُ الهلاك كقول عمر رضي الله عنه : [لا يكن حبُّك كلَفاً ولا بغضُك تلَفاً].

{وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ} وُضع المظهرُ مقام المُضمر تصريحاً بإجرامهم وذماً لهم بذلك، {فَظَنُّوا} أي : **فأيقنوا** {أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا} مخالطوها واقعون فيها أو ظنوا إذ رأوها من مكان بعيد أنهم مواقعوها الساعةَ {وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً}انصرافاً أو معدِلاً ينصرفون إليه.

(المقطع التاسع)

تعقيبات على بعض مشاهد الآخرة، والمشهد الأول من قصة سيدنا موسى عليه السلام

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً{٥٤} وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً{٥٥} وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً{٥٦} وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ

وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً{٥٧} وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً{٥٨} وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً{٥٩} وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً{٦٠} فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً{٦١}﴾.

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ} أي : كررنا وأوردنا على وجوه كثيرةٍ من النظم المعجز لمصلحة الناس ومنفعتِهم {مِن كُلِّ مَثَلٍ} من جملته ما مر مِن مَثَل الرجلين ومثَل الحياةِ الدنيا أو من كل نوعٍ من أنواع المعاني البديعةِ الداعيةِ إلى الإيمان التي هي في الغرابة والحسنِ واستجلاب النفس كالمثل ليتلقَّوْه بالقَبول فلم يفعلوا {وَكَانَ الْإِنسَانُ} بحسب جِبلَّته {أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً} أي : أكثرَ الأشياءِ التي يتأتى منها الجدلُ وهو هاهنا شدةُ الخُصومةِ بالباطل والمماراةِ، من الجدْل الذي هو الفتْلُ، والمجادلةُ الملاواةُ لأن كلاًّ من المجادِلَين يلتوي على صاحبه، وانتصابُه على التمييز والمعنى أن جدَله أكثرُ من جدَل كلِّ مجادل، {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ} أي : أهلَ مكةَ الذين حُكيت أباطيلُهم {أَن يُؤْمِنُوا} من أن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا ما هم فيه من الإشراك {إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى} أي : القرآنُ العظيم الهادي إلى الإيمان بما فيه من فنون المعاني الموجبةِ له {وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ} عما فرَط منهم من أنواع الذنوبِ التي من جملتها مجادلتُهم للحق بالباطل {إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ} أي : إلا طلبُ إتيانِ سُنّتهم أو إلا انتظارُ إتيانِها، وسنتُهم الاستئصالُ {أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ}أي : عذابُ الآخرة {قُبُلاً} أي : أنواعاً، جمعُ قَبيل أو عياناً وانتصابُه على الحالية من الضمير أو العذاب والمعنى أن ما تضمنه القرآنُ الكريم من الأمور المستوجبةِ للإيمان بحيث لو لم يكن مثلَ هذه الحكمةِ القوية لما امتنع الناسُ من الإيمان وإن كانوا مجبولين على الجدَل المفْرِط، {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ} إلى الأمم ملتبسين بحال من الأحوال {إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ} حالَ كونهم مُبَشّرِينَ للمؤمنين بالثواب وَمُنذِرِينَ للكفرة والعصاة بالعقاب {وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ} باقتراح الآياتِ بعد ظهور المعجزاتِ والسؤالِ عن قصة أصحاب الكهف ونحوها تعنّتاً {لِيُدْحِضُوا بِهِ} أي : بالجدال {الْحَقَّ} يُزيلوه عن مركزه ويُبْطلوه من إدحاض القدمِ وهو إزلاقُها، وهو قولهم للرسل عليهم الصلاة والسلام : {قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ}إبراهيم.١٠، {وَاتَّخَذُوا آيَاتِي} التي تخِرُّ لها صمُّ الجبال {وَمَا أُنذِرُوا

هُزُواً} أي : أُنذروه من القوارع الناعيةِ عليهم العقابَ والعذابَ أو إنذارهم استهزاءً، {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ} وهو القرآنُ العظيم {فَأَعْرَضَ عَنْهَا} ولم يتدبرها ولم يتذكرْ بها، وهذا السبكُ وإن كان مدلولُه الوضعيُّ نفيَ الأظلمية من غير تعرّضٍ لنفي المساواة في الظلم إلا أن مفهومَه العُرْفيَّ أنه أظلمُ من كل ظالم، وبناءُ الأظلمية على ما في حيز الصلة من الإعراض عن القرآن للإشعار بأن ظلمَ من يجادل فيه ويتخذُه هزواً خارجٌ عن الحد {وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} أي : عملَه من الكفر والمعاصي التي من جملتها ما ذكر من المجادلة بالباطل والاستهزاءِ بالحق ولم يتفكر في عاقبتها {إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً} أغطيةً كثيرة جمع كنان، وهو تعليلٌ لإعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوعٌ على قلوبهم {أَن يَفْقَهُوهُ} مفعولٌ لما دل عليه الكلام أي : منعناهم أن يقفوا على كُنهه، أو مفعولٌ له أي : كراهةَ أن يفقهوه {وَفِي آذَانِهِمْ} أي : جعلنا فيها {وَقْراً} ثِقَلاً يمنعهم من استماعه {وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً} أي : فلن يكون منهم اهتداءٌ البتةَ مدةَ التكليف، وإذن جزاءٌ للشرط وجوابٌ عن سؤال النبي ﷺ المدلولِ عليه بكمال عنايتِه بإسلامهم، كأنه قال عليه الصلاة والسلام : (مالي لا أدعوهم؟) فقيل : {وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً}، وجمعُ الضميرِ الراجع إلى الموصول في هذه المواضع الخمسة باعتبار معناه كما أن إفراده في المواطن الخمسة المتقدمة باعتبار لفظِه، {وَرَبُّكَ} مبتدأ، وقوله تعالى : {الْغَفُورُ} خبرُه، وقوله تعالى : {ذُو الرَّحْمَةِ} أي : الموصوفُ بها، خبرٌ بعد خبرٍ، وإيرادُ المغفرة على صيغة المبالغة دون الرحمة للتنبيه على كثرة الذنوب، ولأن المغفرةَ تركُ المضارّ وهو سبحانه قادرٌ على ترك ما لا يتناهى من العذاب، وأما الرحمةُ فهي فعل وإيجادٌ ولا يدخل تحت الوجود إلا ما يتناهى، وتقديمُ الوصف الأولِ لأن التخليةَ قبل التحلية أو لأنه أهمُّ بحسب الحال إذ المقامُ مقامُ بيانِ العقوبة عنهم بعد استيجابهم لها كما يُعرب عنه قوله ﷻ : {لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا} أي : لو يريد مؤاخذتهم بِمَا كَسَبُواْ من المعاصي التي من جملتها ما حُكي عنهم من مجادلتهم بالباطل وإعراضِهم عن آيات ربهم وعدمِ المبالاة بما اجترحوا من المُوبقات {لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ} لاستيجاب أعمالِهم لذلك، وإيثارُ المؤاخذة المنبئة عن شدة الأخذِ بسرعة على التعذيب والعقوبة ونحوهما للإيذان بأن النفيَ المستفادَ من مقدَّم الشرطية متعلقٌ بوصف السرعة كما ينبئ عنه تاليها، وإيثارُ صيغة الاستقبال وإن كان المعنى على المضيّ لإفادة أن انتفاءَ تعجيلِ العذاب لهم بسبب استمرار عدمِ إرادة المؤاخذة **فإن المضارعَ الواقعَ موقعَ الماضي يفيد استمرارَ انتفاءِ الفعل فيما مضى**، {بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ}

اسمُ زمان هو يومُ القيامة، والجملةُ معطوفةٌ على مقدر كأنه قيل : لكنهم ليسوا بمؤاخذين بغتةً {لَّن يَجِدُوا} البتةَ {مِن دُونِهِ مَوْئِلاً} منْجى أو ملجأً، {وَتِلْكَ الْقُرَى} أي : قرى عاد وثمودَ وأضرابِها، وهي مبتدأٌ على تقدير المضافِ أي : وأهلُ تلك القرى خبرُه قوله تعالى: {أَهْلَكْنَاهُمْ} أو مفعولٌ مضمرٌ مفسر به {لَمَّا ظَلَمُوا} أي : وقت ظلمِهم كما فعلت قريشٌ بما حُكي عنهم من القبائح، {وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم} أي : عيّنّا لهلاكهم {مَّوْعِداً} أي : وقتاً معيناً لا محيدَ لهم عن ذلك، وهذا استشهاد على ما فُعل بقريش من تعيين الموعد ليتنبهوا لذلك ولا يغتروا بتأخر العذاب، {وَإِذْ قَالَ مُوسَى} نصب بإضمار فعل، أي : اذكر وقت قوله عليه السلام {لِفَتَاهُ} وهو يوشعُ بن نونٍ، ولعل المرادَ بتذكيره عَقيب بيانِ أن لكل أمة موعداً تذكيرُ ما في القصة من موعد الملاقاة مع ما فيها من سائر المنافعِ الجليلة، {لَا أَبْرَحُ} من برِح الناقصِ كزال يزال، أي : لا أزال أسير فحُذف الخبر اعتماداً على قرينة الحالِ إذْ كان ذلك عند التوجه إلى السفر واتكالاً على ما يعقُبه من قوله : {حَتَّى أَبْلُغَ} فإن ذلك غايةٌ تستدعي ذا غايةً يؤدّي إليها، {مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ} هو ملتقى بحرِ فارسَ والروم مما يلي المشرِق، {أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً} أسير زماناً طويلاً أتيقن معه فواتَ المطلب والحُقب الدهرُ أو ثمانون سنة، وكان منشأُ هذه العزيمة أن موسى عليه السلام لما ظهر على مصر مع بني إسرائيلَ واستقروا بها بعد هلاك القبْط أمره الله عز وجل أن يذكّر قومَه النعمةَ فقام فيهم خطيباً بخطبة بديعةٍ رقت بها القلوبُ وذرَفت العيون، فقالوا له : مَنْ أعلمُ الناس؟ قال : أنا. فعتب الله تعالى عليه إذ لم يردّ العلم إليه عز وجل فأوحى إليه : (بل أعلمُ منك عبدٌ لي عند مجمع البحرين وهو الخِضْرُ عليه السلام)، {فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا} الذي جُعل فقدانُ الحوت أمارةَ وُجدانِ المطلوب {نَسِيَا حُوتَهُمَا} أي : نسيا تفقّد أمره وما يكون منه،{فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً} مسلَكاً كالسرب وهو النفق، وانتصابُ سَرباً على أنه مفعولٌ ثانٍ لاتخذ وفي البحر حال منه أو من السبيل.

(المقطع العاشر)

المشهد الثاني من قصة سيدنا موسى عليه السلام

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً{٦٢} قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ

سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً{٦٣} قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً{٦٤} فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً{٦٥} قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً{٦٦} قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً{٦٧} وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً{٦٨} قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً{٦٩} قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً{٧٠} فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً{٧١} قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً{٧٢} قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً{٧٣} فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً{٧٤}﴾.

{فَلَمَّا جَاوَزَا} أي : مجمعَ البحرين الذي جُعل موعداً للملاقاة، {قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءنَا} أي : ما نتغدى به وهو الحوتُ كما ينبئ عنه الجواب {لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا} إشارةٌ إلى ما سارا بعد مجاوزةِ الموعد {نَصَباً} تعباً وإعياءً، والجملةُ في محل التعليل للأمر بإيتاء الغداء إما باعتبار أن النصَبَ إنما يعتري بسبب الضعف الناشئ عن الجوع وإما باعتبار ما في أثناء التغدي من استراحة ما، {قَالَ} أي : فتاه عليه السلام : {أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ} أي : التجأنا إليها وأقمنا عندها، والرؤيةُ مستعارةٌ للمعرفة التامة والمشاهدة الكاملةِ، ومرادُه بالاستفهام تعجيبُ موسى عليه السلام مما اعتراه هناك من النسيان مع كون ما شاهده من العظائم التي لا تكاد تنسى، وقد جُعل فقدانُه علامةً لوجدان المطلوب، والمفعولُ محذوفٌ اعتماداً على ما يدل عليه من قوله عز وجل : {فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ} وفيه تأكيدٌ للتعجيب وتربيةٌ لاستعظام المنسيّ، وإيقاعُ النسيان على اسم الحوت دون ضمير الغَداء مع أنه المأمورُ بإتيانه للتنبيه من أول الأمر على أنه ليس من قبيل نسيان المسافرِ زادَه في المنزل وأن ما شاهده ليس من قبيل الأحوالِ المتعلقة بالغداء من حيث هو غَداءٌ وطعامٌ، بل من حيث هو حوتٌ كسائر الحيتان مع زيادة أي : نسيتُ أن أذكر لك أمرَه وما شاهدتُ منه من الأمور العجيبة، {وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ} بوسوسته الشاغلةِ عن ذلك وقوله تعالى : {أَنْ أَذْكُرَهُ} بدلُ اشتمال من الضمير أي : ما أنساني أن أذكرَه لك، وفي تعليق الإنساء بضمير الحوتِ أولاً وبذكره له ثانياً على طريق الإبدالِ المنبىء عن تنحية المبدَل منه إشارةٌ إلى أن متعلَّقَ النسيان أيضاً ليس نفسَ الحوتِ بل ذكرُ أمره، {وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً} بيانٌ لطرف من أمر الحوتِ منبئٌ عن طرف آخرَ

منه، وما بينهما اعتراضٌ قُدم عليه للاعتناء بالاعتذار، كأنه قيل : حَيِيَ واضطرب ووقع في البحر ، واتخذ سبيله فيه سيلاً عجباً، فعجباً ثاني مفعولَي اتخَذ.

{قَالَ} أي : موسى عليه السلام {ذَلِكَ} الذي ذكرتَ من أمر الحوت {مَا كُنَّا نَبْغِ}، أصلُه نبغيه أي : نطلبه لكونه أَمارةً للفوز بالمرام {فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا} أي : رجعا على طريقِهما الذي جاءا منه {قَصَصاً} يقُصان قَصصاً أي : يتّبعان آثارَهما اتباعاً أو مقتصّين حتى أتيا الصخرة، {فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا} التنكيرُ للتفخيم والإضافةُ للتشريف، والجمهور على أنه : الخِضْرُ واسُمه **بَلْيَا بنُ مَلْكَان**، {آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا} هي الوحيُ والنبوةُ كما يُشعِرُ به تنكيرُ الرحمة واختصاصُها بجناب الكبرياء {وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً} خاصاً لا يُكتنه كُنهُه ولا يقادر قدرُه **وهو علمُ الغيوب**.

{قَالَ لَهُ مُوسَى} استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من السباق، كأنه قيل : فماذا جرى بينهما من الكلام؟ فقيل : قال له موسى : {هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ} استئذاناً منه في اتّباعه له على وجه التعلم {مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً} أي : علماً ذا رُشدٍ أرشُد به في ديني، والرشدُ إصابةُ الخير، ولا ينافي نبوتَه وكونَه صاحبَ شريعةٍ أن يتعلم من نبي آخرَ ما لا تعلقَ له بأحكام شريعتِه من أسرار العلومِ الخفية، ولقد راعى في سَوق الكلام غايةَ التواضع معه عليهما الصلاة والسلام، {قَالَ} أي : الخِضْر : {إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً} نفى عنه استطاعةَ الصبر معه على وجه التأكيد كأنه مما لا يصِحّ ولا يستقيم وعلله بقوله : {وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً} إيذاناً بأنه يتولى أموراً خفيةَ المدارِ مُنْكَرةَ الظواهرِ، والرجلُ الصالح لا سيما صاحبِ الشريعة لا يتمالك أن يشمئز عند مشاهدتها، وفي صحيح البخاري قال : (يا موسى إني على علمٍ من علم الله تعالى علَّمنيه لا تعلَمُه، وأنت على علمٍ من علم الله علّمكه الله لا أعلمه) وخبراً تمييز أي : لم يحط به خبرك، {قَالَ} موسى عليه السلام : {سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ} معك غيرَ معترضٍ عليك، وتوسيطُ الاستثناء بين مفعولَي الوُجدان لكمال الاعتناءِ بالتيمّن ولئلا يُتوهّم بالصبر، وفيه دليلٌ على أن أفعالَ العبادِ بمشيئة الله سبحانه وتعالى، {وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً} عطف على صابراً أي : ستجدني صابراً وغيرَ عاصٍ، وفي وعد هذا الوُجدان من المبالغة ما ليس في الوعد بنفس الصبرِ وترك العصيان، {قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي} أذِن له في الاتّباع بعد اللتيا والتي، والفاءُ لتفريع الشرطية على ما مر من التزام موسى عليه السلام للصبر والطاعة {فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ} تشاهده من أفعالي أي : لا تفاتحْني بالسؤال عن حكمته فضلاً عن المناقشة والاعتراض {حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً} أي : حتى أبتدئ ببيانه، وفيه إيذانٌ بأن كلَّ ما صدر عنه فله حكمةٌ

وغايةٌ حميدةٌ البتةَ، وهذا من أدب المتعلم مع العالم والتابعِ مع المتبوع، {فَانطَلَقَا} أي : موسى والخضِرُ عليهما الصلاة والسلام على الساحل يطلبان السفينةَ، وأما يوشعُ فقد صرفه موسى عليه السلام إلى بني إسرائيلَ، فمرا بسفينة فكلّما أهلها فعرفوا الخضِرَ فحملوهما بغير نَول، {حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ} استعمالُ الركوب في أمثال هذه المواقع بكلمة (في) مع تجريده عنها في مثل قوله ﷻ : {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}النحل٨، على ما يقتضيه **تعديتُه بنفسه** لِما أشرنا إليه في قوله تعالى : {وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ }هود٤١، {خَرَقَهَا} فقلع من ألواحها لوحين مما يلي الماء، فعند ذلك {قَالَ} موسى عليه السلام {أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا} من الإغراق، {لَقَدْ جِئْتَ} أتيت وفعلت {شَيْئاً إِمْراً} أي: عظيماً هائلاً من أمرِ الأمرُ إذا عظُم، {قَالَ} أي : الخضِرُ عليه السلام : {أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً} تذكيرٌ لما قاله من قبلُ وتحقيقٌ لمضمونه متضمنٌ للإنكار على عدم الوفاء بوعده {قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ} بنسياني أو بالذي نسِيتُه أي : بشيء نسيتُه وهو وصيتُه بأن لا يسألَه عن حكمة ما صدر عنه من الأفعال الخفيةِ الأسبابِ قبلَ بيانه، أراد أنه نسِيَ وصيته ولا مؤاخذةَ على الناسي كما ورد في صحيح البخاريّ من أن الأولَ كان من موسى نسياناً، أو أَخْرج الكلامَ في معرِض النهي عن المؤاخذة بالنسيان يوهمه أنه قد نسِيَ ليبسُطَ عذرَه في الإنكار، وهو من معاريض الكلام التي يتقى بها الكذبُ مع التوصل إلى الغرض، أو أراد بالنسيان الترك أي : لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مرة {وَلَا تُرْهِقْنِي} أي : ولا تحمّلني {مِنْ أَمْرِي} وهو اتباعه إياه {عُسْراً} أي : لا تعسِّرْ عليّ متابعتك ويسِّرها عليّ بالإغضاء وتركِ المناقشة، {فَانطَلَقَا} الفاءُ فصيحةٌ أي : فقبل عذرَه فخرجا من السفينة فانطلقا {حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ} قيل : كان الغلامُ يلعب مع الغلمان ففتل عُنقَه، {قَالَ} أي : موسى عليه السلام : {أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً} طاهرةً من الذنوب، {بِغَيْرِ نَفْسٍ} أي : بغير قتلِ نفسٍ محرمة؟ وتخصيصُ نفْي هذا المبيحِ بالذكر من بين سائرِ المبيحات من الكفر بعد الإيمان والزنا بعد الإحصانِ لأنه الأقربُ إلى الوقوع نظراً إلى حال الغلام، ولعل تغييرَ النظمِ الكريم بجعل ما صدر عن الخضِر عليه السلام هاهنا من جملة الشرط، وإبرازِ ما صدر عن موسى عليه الصلاة والسلام في معرض الجزاءِ المقصودِ إفادتُه مع أن الحقيقَ بذلك إنما هو ما صدر عن الخضر عليه السلام من الخوارق البديعة لاستشراف النفسِ إلى ورود خبرِها لقلة وقوعها في نفس الأمر ونُدرة وصول خبرها إلى الأذهان، ولذلك روعيت تلك النكتةُ في الشرطية الأولى لما أن صدورَ الخوارقِ منه عليه السلام خرج

بوقوعه مرة مَخرجَ العادة، فانصرفت النفسُ عن ترقبّه إلى ترقب أحوالِ موسى عليه السلام هل يحافظ على مراعاة شرطه بموجب وعده الأكيد عند مشاهدة خارقٍ آخرَ، أو يسارع إلى المناقشة كما مر في المرة الأولى؟ فكان المقصودُ إفادةَ ما صدر عنه عليه السلام ففعل ما فعل ولله درُّ شأنِ التنزيل، {لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً} قيل : معناه أنكرُ من الأول إذا لا يمكن تدارُكه كما يمكن تدارُكُ الأول بالسدّ ونحوِه.

(المقطع الحادي عشر)

المشهد الثالث من قصة سيدنا موسى مع الخضر عليهما الصلاة والسلام

قوله تعالى : ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً{٧٥} قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً{٧٦} فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً{٧٧} قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً{٧٨} أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً{٧٩} وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً{٨٠} فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً{٨١} وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً{٨٢}﴾.

زيد {لَّكَ} في قوله تعالى : {قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً} لزيادة المكافحة[1] بالعتاب على رفض الوصيةِ وقلة التثبّتِ والصبرِ لمّا تكرر منه الاشمئزازُ والاستنكار ولم يَرعَوِ بالتذكير حتى زاد النكير في المرة الثانية {قَالَ} أي : موسى عليه السلام : {إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا} أي : بعد هذه المرة {فَلَا تُصَاحِبْنِي} أي: لا تجعلني صاحبك {قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً} أي : قد أعذرتَ ووجدتَ من قِبلي عُذراً حيث خالفتُك ثلاثَ مرات، {فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ} هي أنطاكيةُ، كانوا أهلَ قرية لئاما، وقيل : وشرُّ القرى التي لا يضاف فيها الضيفُ ولا يُعرف

[1] المكافحة : أي : المواجهة.

لابن السبيل حقُّه، وقوله تعالى : {اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا} في محل الجرّ على أنه صفةٌ لقرية، ولعل العدولَ عن استطعامهم على أن يكون صفةً للأهل لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعهم فإن الإباءَ من الضيافة وهم أهلُها قاطنون بها أقبحُ وأشنع، {فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا} بالتشديد، يقال : ضافه إذا كان له ضيفاً وأضافه وضيّفه أنزله وجعله ضيفاً له، وحقيقةُ "ضاف" مال إليه من ضاف السهمُ عن الغرَض ونظيرُه زاره من الازورار، {فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ} أي: يداني أن يسقُط فاستعيرت الإرادةُ للمشارفة للدِلالة على المبالغة في ذلك، والانقضاضُ الإسراعُ في السقوط وهو انفعالٌ من القضّ، {فَأَقَامَهُ} قيل : مسحه بيده فقام، وقيل : نقضه وبناه {قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً} تحريضاً له على أخذ الجُعْل لينتعشا به أو تعريضاً بأنه فضولٌ لما في لو من النفي، كأنه لما رأى الحِرمانَ ومِساسَ الحاجة واشتغالَه بما لا يعنيه لم يتمالك الصبرَ، {قَالَ} أي : الخَضِر عليه السلام : {هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ} على إضافة المصدرِ إلى الظرف اتساعاً[1]، أي : هذا الوقتُ وقتُ فراق بيني وبينِك، {سَأُنَبِّئُكَ} السين للتأكيد لعدم تراخي التنبئة {بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً} التأويلُ رجْعُ الشيءِ إلى مآله والمرادُ به هاهنا المآلُ والعاقبةُ إذ هو المنبَّأُ به دون التأويل وهو خلاصُ السفينة من اليد العادِيَة، وخلاصُ أبوَي الغلام من شره مع الفوز بالبدل الأحسنِ واستخراجُ اليتيمين للكنز، وفي جعل صلة الموصول عدمَ استطاعة موسى عليه السلام للصبر دون أن يقال : بتأويل ما فعلتُ أو بتأويل ما رأيتَ ونحوِهما نوعُ تعريضٍ به عليه الصلاة والسلام وعتاب، {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ} التي خرقتُها فَكَانَتْ لضعفاءَ لا يقدرون على مدافعة الظَّلَمة، {يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ} وإسنادُ العمل إلى الكل حينئذ إنما هو بطريق التغليب أو لأن عملَ الوكلاءِ عمل الموكِّلين {فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا} أي : أجعلها ذاتَ عيب الموكِّلين {وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ} أي : أمامَهم الموكِّلين {يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ} أي : صالحةٍ الموكِّلين {غَصْباً} من أصحابها وانتصابُه على أنه مصدرٌ مبينٌ لنوع الأخذ، ولعل تفريعَ إرادة تعييب السفينة على مسكنة أصحابها قبل بيان خوف الغصْب مع أن مدارَها كلا الأمرين، للاعتناء بشأنها إذ هي المحتاجةُ إلى التأويل، وللإيذان بأن الأقوى في المدارية هو الأمرُ الأولُ ولذلك لا يبالي بتخليص سفنِ سائرِ الناس مع تحقق خوف الغصبِ في حقهم أيضاً، ولأن في التأخير فصلاً بين السفينة وضميرِها مع توهم رجوعه إلى الأقرب.

[1] أي : تجوّزاً.

{وَأَمَّا الْغُلَامُ} الذي قتلتُه {فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ} لم يصرح بكفره إشعاراً بعدم الحاجة إلى الذكر لظهوره {فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا} فخِفنا أن يغْشَى الوالدَين المؤمنَين {طُغْيَانا} عليهما {وَكُفْراً} لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعِه ويُلحق بهما شراً وبلاءً، أو يُقرَنَ بإيمانهما طغيانُه وكفره فيجتمَع في بيت واحد مؤمنان وطاغٍ كافرٌ، أو يُعدِيَهما بدائه ويُضلّهما بضلاله فيرتدّا بسببه، وإنما خشيَ الخَضِر عليه السلام منه ذلك لأن الله سبحانه أعلمه بحاله وأطلعه على سر أمرِه، {فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ} منه بأن يرزُقهما بدلَه ولداً خيراً مِنْهُ وفي التعرض لعنوان الربوبيةِ والإضافةِ إليهما ما لا يخفي من الدِلالة على إرادة وصولِ الخير إليهما {زَكَاةً} طهارةً من الذنوب والأخلاق الرديئة {وَأَقْرَبَ رُحْماً} أي : رحمةً وعطفاً، وانتصابُه على **التمييز** مثلُ زكوة، {وَأَمَّا الْجِدَارُ} المعهودُ {فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ} هي القريةُ المذكورة فيما سبق، ولعل التعبيرَ عنها بالمدينة لإظهار نوعِ اعتدادٍ بها باعتداد ما فيها من اليتيمين وأبيهما الصالحِ، {وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا} من فضة وذهب كما رُوي مرفوعاً، {وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً} تنبيهٌ على أن سعيَه في ذلك كان لصلاحه، {فَأَرَادَ رَبُّكَ} أي : مالكُك ومدبرُ أمورك، ففي إضافة الربِّ إلى ضمير موسى عليه السلام دون ضميرهما تنبيهٌ له عليه السلام على تحتم كمالِ الانقيادِ والاستسلامِ لإرادته سبحانه ووجوبِ الاحترازِ عن المناقشة فيما وقع بحسبها من الأمور المذكورة {أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا} أي : حُلُمَهما وكمالَ رأيهما {وَيَسْتَخْرِجَا} بالكلية {كَنزَهُمَا} من تحت الجدار ولولا أني أقمتُه لانقضّ وخرج الكنزُ من تحته قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته وضاع، {رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} مصدرٌ في موقع الحال أي : مرحومَين منه عز وجل، أو مفعولٌ له أو مصدرٌ مؤكدٌ لأراد فإن إرادةَ الخير رحمةٌ، وقيل : متعلقٌ بمضمر أي : فعلتُ ما فعلتُ من الأمور التي شاهدتَها رحمةً من ربك، ويعضُده إضافةُ الرب إلى ضمير المخاطبِ دون ضميرهما فيكون قوله عز وجل : {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي} أي : عن رأيي واجتهادي تأكيداً لذلك {ذَلِكَ} إشارة إلى العواقب المنظومةِ في سلك البيان، وما فيه معنى البُعد للإيذان ببُعد درجتِها في الفخامة {تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع} أي : لم تستطع فحُذف التاء للتخفيف {عَّلَيْهِ صَبْراً} من الأمور التي رابتْه أي : مآلُه وعاقبتُه فيكون إنجازاً للتنبئة الموعودةِ، أو إلى البيان نفسه فيكون التأويلُ بمعناه، وعلى كل حالٍ فهو فذلكةٌ[1] لما تقدم، وفي جعل الصلة عينَ ما مر تكريرٌ للنكير وتشديدٌ للعتاب.

[1] فذلكة : أي خلاصة ما تقدّم.

(المقطع الثاني عشر)

قصة ذي القرنين

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً{٨٣} إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً{٨٤} فَأَتْبَعَ سَبَباً{٨٥} حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً{٨٦} قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً{٨٧} وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً{٨٨} ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً{٨٩} حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْراً{٩٠} كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً{٩١} ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً{٩٢} حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً{٩٣} قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً{٩٤} قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً{٩٥} آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً{٩٦} فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً{٩٧} قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً{٩٨}﴾.

{وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ} هم اليهودُ سألوه على وجه الامتحانِ، أو سألتْه قريشٌ بتلقينِهم، وصيغةُ الاستقبال للدلالة على استمرارهم على ذلك إلى ورود الجوابِ، واختُلف في نبوته بعد الاتفاق على إسلامه وولايته، فقيل : كان نبياً لقوله تعالى : {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً }الكهف٨٤، وظاهر أنه متناولٌ للتمكين في الدين وكمالُه بالنبوة، ولقوله تعالى : {حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً}الكهف٨٦، ونحوِ ذلك، قال ابن كثير : والصحيحُ أنه ما كان نبياً ولا ملَكاً وإنما كان ملكاً صالحاً عادلاً ملَك الأقاليَم وقهر أهَلها من الملوك وغيرَهم ودانتْ له البلادُ، وأنه كان داعياً إلى الله تعالى سائراً في الخلق بالمَعْدلة التامة والسلطانِ المؤيَّد المنصورِ، وكان الخضر على مقدمة جيشه بمنزلة المستشار الذي هو من الملك بمنزلة الوزير، {قُلْ} لهم في الجواب {سَأَتْلُو عَلَيْكُم} أي : سأذكر لكم {مِّنْهُ}أي : من ذي القرنين {ذِكْراً} أي : نبأ مذكوراً، أي : قرآناً، وحيث كان ذلك بطريق الوحي المتلوِّ حكايةً عن الله ﷻ، والسينُ

للتأكيد والدلالة على التحقيق المناسبِ لمقام تأييده عليه السلام وتصديقه بإنجاز وعده، أي : لا أترك التلاوةَ البتةَ كما في قول من قال :

سَأَشْكُرُ عَمْرًا ما تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي *** أيادِيَ لَمْ تُمْنَنْ وَإِنْ هِيَ جَلَّتِ

لا للدلالة على أن التلاوة ستقع فيما يستقبل كما قيل، لأن هذه الآيةَ ما نزلت بإنفرادها قبل الوحي بتمام القصة، بل موصولةٌ بما بعدها ريثما سألوه ﷺ عنه وعن الروح وعن أصحاب الكهفِ، فقال لهم ﷺ : (ائتوني غداً أخبرْكم) فأبطأ عليه الوحيُ خمسة عشر يوماً أو أربعين كما ذكر فيما سلف.

وقوله ﷻ : {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ} شروعٌ في تلاوة الذكر المعهودِ حسبما هو الموعودُ، والتمكينُ هاهنا الإقدارُ وتمهيدُ الأسباب، يقال : مكّنه ومكّن له ومعنى الأولِ جعله قادراً وقوياً، ومعنى الثاني جعل له قدرةً وقوةً، ولتلازمهما في الوجود وتقاربهما في المعنى يُستعمل كلٌّ منهما في محل الآخر كما في قوله ﷻ : {أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ}الأنعام٦، أي : جعلناهم قادرين من حيث القُوى والأسبابُ والآلاتُ على أنواع التصرفاتِ فيها، ما لم نجعلْه لكم من القوة والسَّعة في المال والاستظهارِ بالعَدد والأسباب، فكأنه قيل : ما لم نمكنْكم فيها أي : ما لم نجعلْكم قادرين على ذلك فيها أو مكنّا لهم في الأرض ما لم نمكنْ لكم، وهكذا إذا كان التمكينُ مأخوذاً من المكان بناءً على توهّم ميمِه أصليةً كما أشير إليه في سورة يوسفَ عليه السلام، والمعنى إنا جعلنا له مَكنةً وقدرةً على التصرف في الأرض من حيث التدبيرُ والرأي : والأسبابُ، حيث سُخّر له السحابُ، ومُدّ له في الأسباب، وبُسط له النورُ، وكان الليلُ والنهار عليه سواءً، وسُهّل عليه السيرُ في الأرض، وذُلّلت له طرقها {وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ} أراده من مُهمّات مُلكه ومقاصدِه المتعلقة بسلطانه {سَبَباً} أي : طريقاً يوصله إليه وهو كلُّ ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة {فَأَتْبَعَ}، بالقطع، أي : فأراد بلوغَ المغرب فأتبع {سَبَباً} يوصله إليه، ولعل قصدَ بلوغِ المغرب ابتداءً لمراعاة الحركةِ الشمسية، {حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا} أي : منتهي الأرضِ من جهة المغرب بحيث لا يتمكن أحدٌ من مجاوزته، ووقف على حافة البحر المحيطِ الغربي {تَغْرُبُ} الشمس {فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ} ذاتِ حَمأة وهي الطينُ الأسود من حمِئت البئرُ إذا كثرت

حَمأتُها،{وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً} عند تلك العين قَوْماً كفاراً فخيّره الله جل ذكره بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوَهم إلى الإيمان وذلك قوله تعالى : {قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ} بالقتل من أول الأمر{وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً} أي : أمراً ذا حُسْن على حذف المضافِ أو على طريقةِ إطلاقِ المصدر على موصوفه مبالغةً، وذلك بالدعوة إلى الإسلام والإرشاد إلى الشرائع، ومن لم يقل بنبوته قال : كان ذلك الخطابُ بواسطة نبيَ في ذلك العصر أو كان ذلك إلهاماً لا وحياً بعد أن كان ذلك التخييرُ موافقاً لشريعة ذلك النبي، {قَالَ} أي : ذو القرنين لذلك النبيِّ أو لمن عنده من خواصّه بعد ما تلقّى أمرَه تعالى مختاراً للشق الأخير{أَمَّا مَن ظَلَمَ} أي : نفسَه ولم يقبل دعوتي وأصرّ على ما كان عليه من الظلم العظيم الذي هو الشركُ {فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ} بالقتل، {ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ} في الآخرة {فَيُعَذِّبُهُ} فيها {عَذَاباً نُّكْراً} أي : منكراً فظيعاً وهو عذابُ النار، وفيه دلالةٌ ظاهرةٌ على أن الخطابَ لم يكن بطريق الوحي إليه وأن مقاولتَه كانت مع النبي أو مع من عنده من أهل مشورته، {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً} بموجب دعوتي وَعَمِلَ عملاً صالحا حسبما يقتضيه الإيمان {فَلَهُ} في الدارين {جَزَاء الْحُسْنَى} أي : فله المثوبةُ الحسنى أو الفِعلةُ الحسنى أو الجنةُ جزاءً، في حقه قوةُ الإسلام وأما المؤمنُ فلا يُتعرَّض له إلا بما يحب، ويجوز أن تكون (إما) و (أما) للتوزيع دون التخيير أي : وليكن شأنُك معهم إما التعذيبَ وإما الإحسانَ فالأول لمن بقيَ على حاله والثاني لمن تاب {وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا} أي : مما نأمر به {يُسْراً} أي : سهلاً متيسراً غيرَ شاقَ وتقديرُه ذا يُسر، أو أُطلق عليه المصدرُ مبالغةً، {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً} أي : طريقاً راجعاً من مغرب الشمس موصلاً إلى مشرقها {حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ} يعني الموضِعَ الذي تطلع عليه الشمسُ أولاً من معمورة الأرض، {وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْراً} من اللباس والبناء، {كَذَلِكَ} أي : أمرُ ذي القرنين كما وصفناه لك في رفعة المحلِّ وبسطةِ المُلك، أو أمرُه فيهم كأمره في أهل المغرب من التخيير والاختيارِ، {وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ} من الأسباب والعَدد والعُدد {خُبْراً} يعني أن ذلك من الكثرة بحيث لا يحيط به إلا علمُ اللطيفِ الخبير، {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً} أي : طريقاً ثالثاً معترِضاً بين المشرق والمغرب آخذاً من الجنوب إلى الشمال { حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ} بين الجبلين الذين سُدّ ما بينهما وهو منقطَعُ أرضِ الترك مما يلي المشرِق، وانتصاب (بين) على المفعولية لأنه مبلوغ وهو من الظروف التي تستعمل أسماءً أيضاً كما ارتفع في قوله تعالى : {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ

الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ[1] وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} الأنعام٩٤، وانجرّ في قوله تعالى : {قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ} الكهف٧٨، {وَجَدَ مِن دُونِهِمَا} أي : من ورائهما مجاوزاً عنهما {قَوْمًا} أي : أمة من الناس {لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا} لغرابة لغتِهم وقلة فِطنتِهم، {قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ} وهما اسمانِ أعجميان بدليل منْع الصرف، وقيل : عربيان من أجّ الظليمُ إذا أسرع وأصلهما الهمزة كما قرأ عاصم، وقد قرئ بغير همزةٍ ومُنع صرفُهما للتعريف والتأنيث {مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ} أي : في أرضنا بالقتل والتخريب وإتلافِ الزروع، {فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً} أي : جُعْلاً من أموالنا، والفاء لتفريع العَرض على إفسادهم في الأرض وقرئ خراجا وكلاهما واحد كالنول والنوال وقيل الخراج ما على الأرض والذمة والخرج المصدر وقيل الخرج ما كان على كل رأس والخراج ما كان على البلد وقيل الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك أداؤه {عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً} وقرئ بالضم، {قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي} بالإدغام وقرئ بالفك، أي : ما جعلني ربي فيه مكيناً وقادراً من المُلك والمال وسائرِ الأسباب {خَيْرٌ} مما تريدون أن تبذُلوه إليّ من الخَرْج فلا حاجة بي إليه {فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ} أي : بفَعَلة وصُنّاع يُحسنون البناءَ والعمل وبآلات لا بد منها من البناء، والفاء لتفريع الأمر بالإعانة على خيرية ما مكّنه الله تعالى فيه من مالهم أو على عدم قَبولِ خَرْجِهم {أَجْعَلْ} جواب للأمر {بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ} تقديمُ إضافةِ الظرف إلى ضمير المخاطبين على إضافته إلى ضمير يأجوج ومأجوج، لإظهار كمالِ العناية بمصالحهم كما راعَوْه في قولهم : {عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً} {رَدْماً} أي : حاجزاً حصيناً وبرزخاً متيناً وهو أكبرُ من السدّ وأوثقُ، يقال : ثوبٌ مُرَدّم أي : فيه رِقاع فوق رِقاعٍ وهذا إسعافٌ بمرامهم فوق ما يرجونه، {آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ} جمع زُبْره كغرف في غرفة وهي القطعةُ الكبيرة وهذا لا ينافي ردّ خراجِهم لأن المأمورَ به الإيتاءُ بالثمن أو المناولةُ كما ينبئ عنه القراءة بوصل الهمزة، أي : جيئوني بزُبَر الحديد على حذف الباء كما في أمرتك الخيرَ، ولأن إيتاءَ الآلة من قبيل الإعانةِ بالقوة دون الخَراج على العمل، ولعل تخصيصَ الأمر بالإيتاء بها دون سائرِ الآلات من الصخور والحطبِ ونحوِهما لِما أن الحاجة إليها أمسُّ إذ هي الركنُ في السد ووجودُها أعزُّ، قيل : حفَر الأساسَ حتى بلغ الماء وجعل الأساسَ من الصخر والنحاس المذابِ والبنيانَ من زُبر الحديد بينها الحطبُ والفحم حتى سدّ ما بين الجبلين إلى أعلاهما وكان مائةَ فرسخ وذلك قوله عز قائلاً : {حَتَّى إِذَا سَاوَى

[1] (بَيْنَكُمْ) قُرأت مرفوعة "بينُكم": فيكون الذي تقطع هو "بينُهم" يعني لقد تقطع وصلكم، والبين هو الوصل والهجر أو القطيعة فهو من الأضداد.

بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ} أي : آتَوه إياها فأخذ يبني شيئاً فشيئاً حتى إذا جعل ما بين ناحيتي الجبلين من البنيان مساوياً لهما في السَّمْك على النهج المحكيّ، {قَالَ} للعَمَلة {انفُخُوا} أي : بالكيران في الحديد المبني ففعلوا {حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً} أي : المنفوخ فيه {نَاراً} أي : كالنار في الحرارة والهيئة، وإسنادُ الجعل المذكور إلى ذي القرنين مع أنه فعلُ الفَعَلَة للتنبيه على أنه العُمدة في ذلك وهم بمنزلة الآلة {قَالَ} للذين يتولَّوْن أمرَ النحاس من الإذابة ونحوِهما {آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً} أي : آتوني قطراً أي : نُحاساً مذاباً أفرِغْ عليه قطراً، أي : جيئوني كأنه يستدعيهم للإعانة باليد عند الإفراغ وإسنادُ الإفراغِ إلى نفسه للسر الذي وقفت عليه آنفاً وكذا الكلامُ في قوله تعالى : {سَاوَى} وقولِه تعالى : {أَجْعَلْ}، {فَمَا اسْطَاعُوا} والفاء فصيحةٌ أي : فعلوا ما أُمروا به من إيتاء القِطْر أو الإتيانِ، فأفرغَه عليه، فاختلط والتصق بعضُه ببعض، فصار جبلاً صَلْداً، فجاء يأجوجُ ومأجوجُ، فقصدوا أن يعلُوه وينقُبوه فما استطاعوا {أَن يَظْهَرُوهُ} أي : يعلوه ويرقَوا فيه لارتفاعه وملاسته {وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً} لصلابته وثخانتِه، وهذه معجزةٌ عظيمةٌ لأن تلك الزُبَرَ الكثيرةَ إذا أثرت فيها حرارةُ النار لا يقدر الحيوانُ على أن يحوم حولها فضلاً عن النفخ فيها إلى أن تكون كالنار، أو عن إفراغ القِطر عليها فكأنه سبحانه وتعالى صرف تأثيرَ الحرارةِ العظيمة عن أبدان أولئك المباشرين للأعمال فكان ما كان والله على كل شيء قدير، {قَالَ} أي : ذو القرنين لمن عنده من أهل تلك الديارِ وغيرهم، {هَذَا} إشارةٌ إلى السد، {رَحْمَةٌ} أي : أثرُ رحمةٍ عظيمة عبر عنه بها مبالغةً {مِّن رَّبِّي} على كافة العباد لا سيما على مجاوريه، وفيه إيذانٌ بأنه ليس من قبيل الآثارِ الحاصلة بمباشرة الخلقِ عادةً بل هو إحسانٌ إلهي محضٌ وإن ظهر بمباشرتي، والتعرّضُ لوصف الربوبية لتربية معنى الرحمة، {فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي} مصدر بمعنى المفعول وهو يومُ القيامة لا خروجُ يأجوجَ ومأجوجَ كما قيل إذ لا يساعده النظمُ الكريم، والمراد بمجيئه ما ينتظم مجيئَه ومجيءَ مباديه من خروجهم وخروجِ الدجالِ ونزولِ عيسى عليه السلام ونحوِ ذلك لا دنوُّ وقوعِه فقط كما قيل، {جَعَلَهُ} أي : السدَّ المشارَ إليه مع متانته ورصانته، وفيه من الجزالة ما ليس في توجيه الإشارة السابقة إلى التمكين المذكور {دَكَّاء} أي : أرضاً مستويةً، وكلُّ ما انبسط بعد ارتفاعٍ فقد اندك ومنه الجملُ الأدكُّ أي : المنبسطُ السنام، وهذا الجعلُ وقت مجيءِ الوعد بمجيء بعضِ مباديه، وفيه بيانٌ لعظم قدرته عز وجل بعد بيان سعةِ رحمته {وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي} أي : وعدُه المعهودُ أو كلُّ ما وعد به فيدخُل

فيه ذلك دخولاً أولياً {حَقّاً} ثابتاً لا محالةَ واقعاً البتة، وهذه الجملةُ تذييلٌ من ذي القرنين لما ذكره من الجملة الشرطية ومقرِّرٌ مؤكدٌ لمضمونها وهو آخرُ ما حُكي من قصته.

(المقطع الثالث عشر)

بعض مشاهد القيامة، والتنويه بشأن التنزيل المجيد، والرسول الكريم ﷺ

قوله تعالى : ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً{٩٩} وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً{١٠٠} الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً{١٠١} أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً{١٠٢} قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً{١٠٣} الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً{١٠٤} أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً{١٠٥} ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً{١٠٦} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً{١٠٧} خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً{١٠٨} قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً{١٠٩} قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً{١١٠}﴾

قوله ﷻ : {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ} كلامٌ مَسوقٌ من جنابه تعالى معطوفٌ على قوله تعالى: {جَعَلَهُ دَكَّاء} ومحقِّقٌ لمضمونه أي : جعلنا بعضَ الخلائق {يَوْمَئِذٍ} أي : يوم إذ جاء الوعدُ بمجيء بعضِ مباديه {يَمُوجُ فِي بَعْضٍ} آخرَ منهم يضطربون اضطرابَ أمواجِ البحر ويختلط إنسُهم وجنُّهم حَيارى من شدة الهول، ولعل ذلك قبل النفخةِ الأولى، أو تركنا بعضَ يأجوجَ ومأجوجَ يموج في بعض آخرَ منهم حين يخرُجون من السد مزدحمين في البلاد.

{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ} هي النفخةُ الثانية بقضية الفاء قوله تعالى : {فَجَمَعْنَاهُمْ} ولعل عدمَ التعرضِ لذكر النفخة الأولى لأنها داهيةٌ عامةٌ ليس فيها حالةٌ مختصة بالكفار، و لئلا يقعَ الفصلُ بين ما يقع منها في النشأة الأولى من الأحوال والأهوالِ، وبين ما يقع منها في النشأة

الآخرة، أي : جمعنا الخلائقَ بعدما تفرقت أوصالُهم وتمزقت أجسادُهم في صعيد واحدٍ للحساب والجزاء {جَمْعاً} أي : جمعاً عجيباً لا يُكتنَه كُنهُه {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ} أي : أظهرناها وأبرزناها {يَوْمَئِذٍ} أي : يومَ إذْ جمعنا الخلائقَ كافة {لِّلْكَافِرِينَ} منهم حيث جعلناها بحيث يرَوْنها ويسمعون لها تغيظاً وزفيراً {عَرْضاً} أي : عرضاً فظيعاً هائلاً لا يُقادَر قدرُه، وتخصيصُ العَرض بهم مع أنها بمرأى من أهل الجمعِ قاطبةً لأن ذلك لأجلِهم خاصة، {الَّذِينَ كَانَتْ} وهم في الدنيا {أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء} كثيف وغشاوةٍ غليظة مُحاطةٍ من جميع الجوانب {عَن ذِكْرِي} عن الآيات المؤدية لأولي الأبصار المتدبرين فيها إلى ذكري بالتوحيد والتمجيدِ، أو كانت أعينُ بصائرهم في غطاء عن ذكري على وجه يليق بشأني أو عن القرآن الكريم {وَكَانُوا} مع ذلك {لَا يَسْتَطِيعُونَ} لفَرْط تصامّهم عن الحق وكمالِ عداوتهم للرسول ﷺ {سَمْعاً} استماعاً لذكري وكلامي الحقِّ الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، وهذا تمثيلٌ لإعراضهم عن الأدلة السمعية كما أن الأولَ تصويرٌ لتعاميهم عن الآيات المشاهَدة بالأبصار، والموصولُ نعتٌ للكافرين أو بدلٌ منه أو بيانٌ جيء به لذمهم بما في حيز الصلة وللإشعار بعلّيته لإصابة ما أصابهم من عرض جهنمَ لهم، فإن ذلك إنما هو لعدم استعمالِ مشاعرِهم فيما عَرَض لهم في الدنيا من الآيات وإعراضهم عنها مع كونها أسباباً منجّيةً عما ابتُلوا به في الآخرة، {أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا} أي : كفروا بي كما يُعرب عنه قوله تعالى : {أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي} والحُسبان بمعنى الظن، **والهمزةُ للإنكار والتوبيخِ** على معنى إنكارِ الواقعِ واستقباحه، كما في قولك : أضربتَ أباك؟ لا إنكارِ الوقوعِ، كما في قوله : أأضرِب أبي؟ والفاء للعطف على مقدر يُفصح عنه الصلةُ على توجيه الإنكارِ والتوبيخِ إلى المعطوفَين جميعاً كما إذا قُدّر المعطوفُ عليه في قوله تعالى : {أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} منفياً أي : لا تسمعون فلا تعقلون لا إلى المعطوف فقط كما إذا قُدّر مُثْبتاً أي : أتسمعون فلا تعقلون، والمعنى : أكفروا بي مع جلالة شأني فحسبوا {أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء} من الملائكة وعيسى وعُزيرٍ عليهم السلام وهم تحت سلطاني وملكوتي {أَوْلِيَاء} معبودين ينصُرونهم من بأسي، وما في حيز صلةِ (أن) سادٌّ مسدَّ مفعولَيْ (حسِب) كما في قوله تعالى : {وَحَسِبُواْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} المائدة٧١ أي : أفحسبوا أنهم يتخذونهم أولياءَ على معنى أن ذلك ليس من الاتخاذ في شيء لِما أنه إنما يكون من الجانبين، وهم عليهم الصلاة والسلام منزَّهون عن وَلايتهم بالمرة لقولهم : {قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا

يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ} سبأ٤١، {إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ} أي: هيأناها {لِلْكَافِرِينَ} المعهودين، عدلَ عن الإضمار ذمًّا لهم وإشعاراً بأن ذلك الاعتادَ بسبب كفرهم المتضمّنِ لحسبانهم الباطل {نُزُلاً} أي : شيئاً يتمتعون به عند ورودهم وهو ما يقام للنزيل أي : الضيف مما حضر من الطعامِ، وفيه تخطئةٌ لهم في حسبانهم وتهكّمٌ بهم حيث كان اتخاذُهم إياهم أولياءَ من قبيل إعتاد العتادِ وإعدادِ الزاد ليوم المعاد، فكأنه قيل : إنا أعتدنا لهم مكان ما أعدّوا لأنفسهم من العُدة والذُّخر جهنمَ عُدّةً، وفي إيراد النُزُل إيماءٌ إلى أن لهم وراءَ جهنمَ من العذاب ما هو أنموذجٌ له، وقيل : النزلُ موضعُ النزول، ولذلك فسره ابن عباس رضي الله عنهما بالمثوى، {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ} الخطابُ الثاني للكفرة على وجه التوبيخِ والجمعُ في صيغة المتكلم لتعيينه من أول الأمر وللإيذان بمعلومية النبأ للمؤمنين أيضاً {بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً} نصبٌ على **التمييز** والجمعُ للإيذان بتنوعها، وهذا بيانٌ لحال الكفرة باعتبار ما صدَر عنهم من الأعمال الحسَنةِ في أنفسها وفي حُسبانهم أيضاً حيث كانوا معجَبين بها واثقين بنيل ثوابِها ومشاهدةِ آثارِها غِبَّ بيان حالِهم باعتبار أعمالِهم السيئةِ في أنفسها مع كونها حسنةً في حسبانهم، {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} في إقامة تلك الأعمالِ أي : ضاع وبطَل بالكلية ومحلُّ الموصول الرفعُ على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ لأنه جوابٌ للسؤال، كأنه قيل : من هم؟ فقيل : {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً} وجعلُه مجروراً على أنه نعتٌ للأخسرين أو بدلٌ منه أو منصوباً على الذم على أن الجوابَ ما سيأتي من قوله تعالى : {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً} يأباه أن صدرَه ليس مُنْبئاً عن خُسران الأعمالِ وضلالِ السعي كما يستدعيه مقامُ الجواب، والتفريعُ الأولُ وإن دل على حبوطها لكنه ساكتٌ عن إنباء ما هو العُمدةُ في تحقيق معنى الخسرانِ من الوثوق بترتب الربحِ واعتقاد النفعِ فيما صنعوا على أن التفريعَ الثانيَ يقطع ذلك الاحتمالَ رأساً إذ لا مجال لإدراجه تحت الأمرِ بقضية نونِ العظمة، {وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً} الإحسانُ الإتيانُ بالأعمال على الوجه اللائقِ وهو حسنُها الوصفيُّ المستلزِمُ لحسنها الذاتي، أي : يحسبَون أنهم يعملون ذلك على الوجه اللائقِ وذلك لإعجابهم بأعمالهم التي سعَوا في إقامتها وكابدوا في تحصيلها، والجملةُ حالٌ من فاعل ضل أي : بطل سعيُهم المذكورُ والحالُ أنهم يحسَبون أنهم يُحسنون في ذلك وينتفعون بآثاره، {أُولَئِكَ} كلامٌ مستأنفٌ من جنابه تعالى مَسوقٌ لتكميل تعريف الأخسرين وتبيينِ سبب خسرانهم

وضلالِ سعيهم وتعيينهم بحيث ينطبق التعريفُ على المخاطبين غيرُ داخلٍ تحت الأمر، أي : أولئك المنعوتون بما ذكر من ضلال السعي مع الحسبان المزورِ {الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ} دلائله الداعيةِ إلى التوحيد عقلاً ونقلاً، والتعرضُ لعنوان الربوبيةِ لزيادة تقبيحِ حالِهم في الكفر المذكور {وَلِقَائِهِ} بالبعث وما يتبعه من أمور الآخرة على ما هي عليه {فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} المعهودةُ حبوطاً كلياً {فَلَا نُقِيمُ} أي : لأولئك الموصوفين بما مر من حبوط الأعمالِ، {يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً} أي : فنزدريهم ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً لأن مدارَه الأعمالُ الصالحة وقد حبِطت بالمرة، وحيث كان هذا الازدراءُ من عواقب حبوط الأعمال عُطف عليه بطريق التفريعِ، وأما ما هو من أجزية الكفرِ فسيجيء بعد ذلك، أو لا نضع لأجل وزنِ أعمالهم ميزاناً لأنه إنما يوضع لأهل الحسناتِ والسيئاتِ من الموحّدين ليتمَّمَ به مقاديرُ الطاعات والمعاصي ليترتب عليه التكفير أو عدمُه لأن ذلك في الموحدين بطريق الكمية، وأما الكفرُ فإحباطه للحسنات بحسب الكيفية دون الكمية فلا يوضع لهم الميزانُ قطعاً، {ذَلِكَ} بيانٌ لمآل كفرهم وسائرِ معاصيهم إثرَ بيان مآلِ أعمالِهم المحبَطة بذلك أي : الأمرُ ذلك، {جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ} جملةٌ مبيّنةٌ له أو ذلك مبتدأٌ والجملةُ خبرُه والعائدُ محذوفٌ، أي : جزاؤُهم به أو جزاؤهم بدلَه وجهنمُ خبرُه أو جزاؤهم خبرُه وجهنمُ عطفُ بيانٍ للخبر {بِمَا كَفَرُوا} تصريحٌ بأن ما ذكر جزاءٌ لكفرهم المتضمن لسائر القبائحِ التي أنبأ عنها قوله تعالى : {وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً} أي : مهزوًّا بهما فإنهم لم يقتنعوا بمجرد الكفرِ بالآيات والرسل، بل ارتكبوا مثلَ تلك العظيمة أيضاً.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا} بيانٌ بطريق الوعد لمآل الذين اتصفوا بأضداد ما اتصف به الكفرةُ إثرَ بيانِ ما لهم بطريق الوعيد، أي : آمنوا بآيات ربّهم ولقائه {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} من الأعمال {كَانَتْ لَهُمْ} فيما سبق من حكم الله تعالى ووعدِه، وفيه إيماءٌ إلى أن أثرَ الرحمة يصل إليهم بمقتضى الرأفة الأزلية بخلاف ما مر من جعل جهنم للكافرين نزلاً، فإنه بموجب ما حدث من سوء اختيارِهم، {جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ} وعن كعب : أنه ليس في الجنان أعلى من جنة الفردوس وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، وعن رسول الله ﷺ : (في الجنة مائةُ درجةٍ ما بين كلِّ درجةٍ مسيرةُ مائة عام، والفردوسُ أعلاها وفيها الأنهارُ الأربعةُ فإذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفِردوسَ فإن فوقه عرشَ الرحمن ومنه تفجّر أنهار الجنة)، {نُزُلاً} خبر (كانت)، فإن جعل النزول بمعنى ما يُهيَّأ للنازل فالمعنى كانت لهم ثمارُ جناتِ الفردوس نزلاً، أو جُعلت نفسُ

الجنّات نزلاً مبالغةً في الإكرام، وفيه إيذانٌ بأنها عند ما أعد الله لهم على ما جرى على لسان النبوة من قوله : (أَعْدَدْتُ لعباديَ الصالحين ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمِعتْ ولا خطرَ على قلب بشر) بمنزلة النزلِ بالنسبة إلى الضيافة، وإن جُعل بمعنى المنْزِل فالمعنى ظاهر، {خَالِدِينَ فِيهَا} نصب على **الحالية** {لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً} مصدرٌ كالعِوج والصِّغر، أي : لا يطلبون تحوّلاً عنها إذ لا يُتصوّر أن يكون شيءٌ أعزَّ عندهم وأرفعَ منها حتى تُنازِعَهم إليه أنفسُهم وتطمَح نحوه أبصارُهم، ويجوز أن يراد نفيُ التحول وتأكيدُ الخلود، والجملة حالٌ من صاحب خالدين أو من ضميره فيه فيكون حالاً متداخِلةً.

{قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ} أي : جنسُ البحر {مِدَاداً} وهو ما تُمِدُّ به الدواةُ من الحبر {لِّكَلِمَاتِ رَبِّي} لتحرير كلماتِ علمِه وحكمتِه التي من جملتها ما ذكر من الآيات الداعيةِ إلى التوحيد المحذّرة من الإشراك {لَنَفِدَ الْبَحْرُ} مع كثرته ولم يبقَ منه شيء لتناهيه {قَبْلَ أَن تَنفَدَ} والمعنى من غير أن تنفد {كَلِمَاتُ رَبِّي} لعدم تناهيها فلا دِلالةَ للكلام على نفادها بعد نفادِ البحرِ، وفي إضافة الكلماتِ إلى اسم الربِّ المضاف إلى ضميره ﷺ في الموضعين من تفخيم المضاف وتشريف المضاف إليه ما لا يخفى، وإظهارُ البحر والكلماتِ في موضع الإضمارِ لزيادة التقرير {وَلَوْ جِئْنَا} كلامٌ من جهته تعالى غيرُ داخل في الكلام الملقّن جيء به لتحقيق مضمونه وتصديقِ مدلوله مع زيادة مبالغةٍ وتأكيد، والواوُ لعطف الجملة على نظيرتها المستأنفةِ المقابلةِ لها المحذوفة لدِلالة المذكورةِ عليها دَلالةً واضحة، أي : لنفد البحرُ من غير نفادِ كلماته تعالى لو لم نجيء بمثله مدداً ولو جئنا، بقدرتنا الباهرة {بِمِثْلِهِ مَدَداً} عوناً وزيادةً لأن مجموعَ المتناهيَيْن متناهٍ، بل مجموعُ ما يدخل تحت الوجود من الأجسام لا يكون إلا متناهياً لقيام الأدلةِ القاطعة على تناهي الأبعادِ، {قُلْ} لهم بعد ما بينْتَ لهم شأن كلماتِه تعالى : {إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ} لا أدّعي الإحاطةَ بكلماته التامة {يُوحَى إِلَيَّ} من تلك الكلماتِ {أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} لا شريكَ له في الخلق ولا في سائر أحكامِ الألوهيةِ، وإنما تميزْتُ عنكم بذلك {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ} الرجاءُ توقعُ وصولِ الخير في المستقبل، والمرادُ بلقائه تعالى كرامتُه، وإدخالُ الماضي على المستقبل للدِلالة على أن اللائقَ بحال المؤمن الاستمرارُ والاستدامةُ على رجاء اللقاء، أي : فمن استمر على رجاء كرامتِه تعالى {فَلْيَعْمَلْ} لتحصيل تلك الطِّلْبةِ العزيزة {عَمَلاً صَالِحاً} في نفسه لائقاً بذلك المرجوّ كما فعله الذين آمنوا وعملوا الصالحات {وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً} إشراكاً جلياً كما فعله الذين كفروا بآيات ربّهم ولقائه، ولا إشراكاً كما يفعله أهلُ الرياء ومَنْ يطلبُ

به أجراً، وإيثارُ وضعِ المُظهَرِ موضعَ المُضمر في الموضعين مع التعرض لعنوان الربوبيةِ لزيادة التقريرِ، وللإشعار بعلية العنوانِ للأمر والنهي ووجوبِ الامتثالِ فعلاً وتركاً.

وقد انطبق[١] **آخر السورة على أولها** بوصف كلمات الله، ثم ما يوحى إليه، وكل منهما أعم من الكتاب بالأقومية للدعاء إلى الحال الأسلم، في الطريق الأقوم، وهو التوحيد عن الشريك الأعم من الولد وغيره، والإحسان في العمل، مع البشارة لمن آمن، والنذارة لمن أعرض عن الآيات والذكر، فبان بذلك أن لله تعالى بوحدانيته وتمام علمه وشمول قدرته صفات الكمال، فصح أنه المستحق لجميع الحمد، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، قال الله تعالى : ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يونس.١٠

تمت بحمد الله تعالى

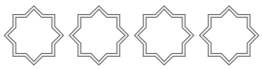

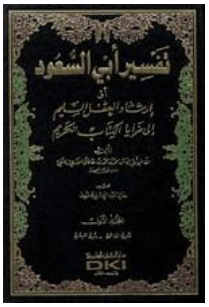

[للتذكير |

الكتاب المقرر : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم – **لأبي السعود**.

وهو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، المولى أبو السعود : مفسر شاعر، من علماء الترك المستعربين، ولد بقرب القسطنطينية، سنة (٨٩٨ هـ) تقلد القضاء في بروسة ثم في القسطنطينية ثم في الروم ايلي، وأضيف إليه الافتاء سنة (٩٥٢ هـ)؛ وكان مهيبا حظيا عند السلطان، يؤخذ عليه الميل الزائد إلى أرباب الرئاسة ومداهنتهم، توفي سنة (٩٨٢ هـ) – رحمه الله وأنزل على قبره شآبيب رحمته، وهو مدفون في جوار مرقد أبي أيوب الانصاري ﷺ.

المقرر معنا من الكتاب المذكور : سورة الكهف وعدد آياتها (١١٠) آية].

[١] **من كلام البقاعي في نظم الدرر في تناسب الآيات والسور.**